محمد حسين

"يامّ يامّ"

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

يام يام (روايـة)
محمد أحمد حسين
نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون
الغلاف: كريم آدم
التصحيح اللغوي: محمد حمدي
رقم الإيداع: ٢٦٣٦٤ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٦ - ٠٢٧ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨
جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

مقدمة

في وسط ظلام الليل وسكونه، انطلق الخليفة من قصره ملثمًا ممتطيًا صهوة جواده، واتجه ناحية الجبانة الكبرى بجبل (الجيوشي).
المجاعة منتشرة، ونهر النيل جف ماؤه، والأرزاق شحيحة... بالأمس كانوا يدعون له على المنابر، حتى وصل الدعاء باسمه إلى منابر (بغداد) عاصمة العباسيين!
والآن..
أصبحت أملاكه وأملاك أجداده في الشام وعلى حدود (مصر) في خطر داهم!
الوضع صعب!
لكن ما سمعه اليوم من الشيخ (نور الدين القليوبي) جعل النوم يجافي عينيه...
الجواد يرتفع أكثر فأكثر، ويصل أخيرًا إلى القمة.. منطقة السكون الأزلي، لا يوجد صوت سوى صوت صفير الرياح الباردة وعواء الذئاب.
منطقة الجبانة.. هنا يُدفن الفقراء والحرافيش والبسطاء، أما هو فسيدفن بجوار أبيه وأجداده في أحد المساجد، حيث يصبح مرقده مقامًا يتبرك الناس بزيارته وقراءة الفاتحة له.
كان القمر بدرًا فألقى بأشعته على الجبل فأناره، وأحس الخليفة أنه أصبح قادرًا على الاقتراب من البدر ولمسه بيده.
كانت هناك حفرة كبيرة أمامه، فنزل من على الجواد واقترب منها.. كانت حفرة سحيقة بها عظام وجماجم بشرية، وجثتان قد انفجر بطناهما وامتلآ بدود الأرض، ما أثار اشمئزازه، لكن ما أثار رعبه هو آثار السحب والجر الموجودة بجوار الحفرة تمامًا..
لماذا يتم نبش جبانة للموتى؟
وماذا سحبوا من الجبانة؟
ومن فعل ذلك؟
الأمر واضح...
هناك من يسرق الجثث من الجبانة!
كلام الشيخ (نور الدين) سليم إذن..
الرجل كان يقسم له إنه دفن رب أسرة منذ يومين، واليوم جاء يدفن زوجته فوجد الجبانة وقد نبشت وجثة الرجل غير موجودة!
هذه ليست الحادثة الأولى ـ على حد قول الشيخ (نور الدين) ـ فقد تكررت من قبل مرتين في الأسبوعين الفائتين، لكنه ظن أن الذئاب ربما تكون فتك بها الجوع فأخرجت الجثث والتهمتها!
ولكن أين بقايا الالتهام؟
وأي ذئب هذا الذي يجر جثة رجل يزيد وزنه على السبعين رطلاً؟

هناك من يسرق الجثث من الجبانة!
هكذا تيقن الخليفة من شكوكه، وسمع صوت عواء الذئاب وقد أصبحت على مقربة، فشعر بالخوف وامتطى جواده وقفل راجعًا إلى قصره..

الفصل الأول

حينما شدد أبو أحمد الموفق طلحة، أخو الخليفة المعتمد على اللـه (٢٥٦ ـ ٢٥٢هـ) (٨٧٠ ـ ٨٩٢م) الخناق على صاحب الزنج، ألجأه إلى الاعتصام بأحد المواضع في أغوار نهر أبي الخصيب بجنوب العراق في سنة ٢٦٩هـ (٨٨٢م) وانقطعت عنه الميرة وغلا سعر القمح عند المحصورين، فأكلوا الشعير ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي أو رجل ذبحه وأكله، ثم صار قَـوي الزنج يعدو على ضعيفهم فكان إذا خلا به ذبحه وأكل لحمه ثم أكلوا لحوم أولادهم، ثم كانوا ينبشون الموتى فيبيعون أكفانهم ويأكلون لحومهم، وكان لا يعاقب الخبيثُ أحدا ممن فعل شيئا من ذلك إلا بالحبس، فإذا تطاول حبسه أطلقه)

(أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك)

(الإسكندرية) فبراير ٢٠١٢م

إن (أحمد الجمال) يتقبل حياته الجديدة التي بدأها منذ أقل من عام، ولا يشعر بأي حرج عند مناداته بضابط سابق!

هو نفسه لم يكن مرتاحًا لكونه ضابط شرطة، ورغم أنه كان يؤدي عمله على أكمل وجه، كان يؤديه من باب الشعور بالواجب ليس إلا.. لكنه لم يحببه قط.

ثم كانت الكارثة منذ ثلاث سنوات!

تم نقله للعمل بجهاز أمن الدولة، حيث رأى ما لم يخطر على باله قط؛ وجد وحوشًا في صورة آدمية، وجد شواذ ومرضى نفسيين يتلذذون بتعذيب البشر وإهانة كرامتهم، لقد شاهد كثيرًا فيلمي (الكرنك) و(إحنا بتوع الأتوبيس) وغيرها من أفلام (الكرنَكَة) التي أطلق عليها النقاد ذلك الاسم لتشابه جميع أفكارها مع فكرة فيلم (الكرنك)... لكن ما رآه خلال سنوات خدمته يفوق أي فيلم شاهده من قبل..

كان من الغريب بعد إلغاء جهاز أمن الدولة ـ عقب ثورة (يناير) ـ أن يكون (أحمد الجمال) من أوائل الضباط الذين يقدمون طلب الإحالة للاستيداع؛ فهو لم يشارك قط في تعذيب معتقل أو متهم، وملف خدمته نظيف للغاية، أو على حد قول رئيسه اللواء (رشدي تعلب):

ـ ملفك نظيف زيادة عن الحد وهذا شيء غريب على ضابط أمن دولة.. حاول يا عزيزي أن تكون أشد ضراوة.. فالأصناف التي نقابلها لا تستحق إلا المعاملة القاسية!

لقد كان (أحمد الجمال) حاضرا يوم حريق مبنى الجهاز، وشاهد كيف هرب الجميع، الضباط المتعجرفون تحولوا إلى نعاج خائفة تفر دون تفكير ودون اتجاه محدد.. أصبحوا مثل السكارى والخوف احتل قلوبهم بدلا من الوحشية والاستخفاف بالبشر.

طرد (أحمد) من عقله تلك الذكريات واستكمل قراءة الصحيفة التي في يديه، وهو يستمتع بصوت التجاج أمواج البحر الثائرة التي كانت تؤذن ببداية نوّة عارمة!
طوى الصحيفة في ملل، وأنهى فنجان الشيكولاتة الذي كان أمامه، ثم ارتدى ملابسه وخرج من غرفته.
كان يقيم في بنسيون متوسط المستوى، فقط ثلاثة أدوار بكل دور ثلاث غرف، فراش ومنضدة ودولاب صغير وحمام ملحق بكل غرفة... هكذا كان يعيش الضابط السابق طيلة الفترة السابقة، إنه يفكر في فتح مكتب للمحاماة لكنه متردد في تنفيذ تلك الفكرة؛ يريد أن يبتعد عن دنيا الجريمة والسرقة والقتل وحوادث الاغتصاب..
يبغي الحرية.. الحرية التي حُرِمَ منها منذ أن كان طفلاً صغير، وكان والده اللواء (علاء الجمال) يعده كي يكون ضَابطًا.
النادي تم تخصيصه لاحتراف السباحة وألعاب القتال (كاراتيه ـ جودو ـ كونغ فو...) وأوقات الفراغ كانت فحسب لتلقينه مبادئ العسكرية والشرف..
ولأجل ذلك نشأ (أحمد) قوي البنية، سريع البديهة، صاحب شجاعة وإقدام.. لكنه مع ذلك لم يجد نفسه في الشرطة، ولم يستطع الاقتناع بفكرة المحاماة، ولا يملك أي خلفية تجارية كي يفتح مشروعا خاصا به، ولذلك طار إلى (الإسكندرية) بعد أن تسلم مكافأة التقاعد، وضمها إلى إرثه المتواضع الذي تركه له والده وتقاسمه مع شقيقه الطبيب (فهمي الجمال)، إنه لا يفعل شيئًا منذ أن ترك الخدمة، يستيقظ لتناول الفطور ومطالعة الصحف، ثم يتجه إلى الكورنيش حاملا سنارته ويظل على شاطئ البحر يصطاد حتى تلتمع نجوم السماء، فيتناول عشاءه في أي مطعم ويعود إلى البنسيون كي ينام!
الأموال تتسرب من بين يديه، لكنه مستسلم لحالته.. ويشعر بقسط من السعادة لم يجدها في حياته السابقة.
بينما كان حاملاً سنارته تاركًا البنسيون وراءه ناداه (خليفة) ـ ابن صاحبة البنسيون وموظف الاستقبال ـ كان صبيا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، يميل إلى القِصر والبدانة، كسول كدب بري حتى إنه ترك الدراسة وتفرغ للوظيفة المريحة التي لا يتكلف فيها مشقة الوقوف لزبون آت أو راحل!
(أحمد) باشا!
فالتفت إليه (أحمد)، فقال الفتي:
ـ حاول أن تعود مبكرا الليلة؛ (نوة الكرم) ستبدأ والأرصاد تقول إنها ستكون نوّة قوية، والمحلات ـ بما فيها المطاعم ـ ستغلق أبوابها مبكرة اليوم..
فشكره بابتسامة ودودٍ وانطلق خارجًا..

* * *

على شاطئ البحر جلس (أحمد) على إحدى الصخور البعيدة عن الأمواج المتلاطمة، كان الجو قارس البرودة والهواء يكاد يطيره من مكانه، وشعر أن عليه

بالفعل آن يبدأ في العودة إلى أدراجه، خاصة آن الساعة تعدت الرابعة عصرا، لكن السماء ملبدة بالغيوم وبدت كأنها أنها ستفيض الليلة بالعديد من معجزاتها!
كان يجلس على بعد مسافة منه رجل يعتمر قبعة كتلك التي يرتديها صيادو الأسماك، وكان يضع نظارة سوداء أخفت معظم ملامح وجهه، كان (أحمد) يقوم بجمع أشيائه عندما جاءه صوت الرجل يسأل في هدوء:
ـ طقس لا يشجع على الصيد، أليس كذلك؟
فأجابه مقتضبا:
ـ بلى..
ـ ربما تكون هناك نوّة الليلة؟
ـ ربما..
ـ السماء مليئة بالغيوم، والبحر ثائر، الساعة تقترب من الرابعة عصرًا لكنها تبدو كالسابعة مساءً!
كان (أحمد) قد انتهى من جمع أشيائه، وأراد أن ينطلق مسرعًا كي يهرب من هذا الثرار، فأجابه وعلى وجهه ابتسامة صفراء:
ـ نعم، طقس سيئ، حاول أن تحترس لنفسك.. أستودعك...
وقبل أن يكمل جملته جاءه صوت الرجل يسأل مقاطعًا:
ـ كيف حالك يا (أحمد)؟
فدُهِش (أحمد) وسأله في استغراب:
ـ كيف عرفت اسمي؟
فأجابه:
ـ أنا اللواء (رشدي) يا (أحمد) ابق مكانك ولا تنظر إليّ وأنت تكلمني...
فثبت (أحمد) في مكانه وهو لا يصدق نفسه، إن علاقته باللواء (رشدي) كانت علاقة عمل فحسب، صحيح أنه كان يعرف والده ـ رحمه اللـه ـ لكنه لم ينظر قط إلى هذه المعرفة بعين التقدير أو الإكبار..
جاءه صوت اللواء (رشدي) مرة أخرى يقول ساخرًا:
ـ أرى أن صحتك تحسنت بعد ترك الخدمة!
ـ الحمد للـه على كل حال..
ـ الداخلية دائما تأخذ أكثر مما تعطي يا عزيزي.. أليس كذلك؟
ـ بلى.. ولكن...
فقاطعه اللواء (رشدي) وهو يقوم بجمع مستلزمات الصيد الخاصة به قائلا:
ـ بالطبع يقتلك الفضول كي تعرف سبب زيارتي لك!
فقال (أحمد) في حرج:
ـ رؤياك تسعدني يا سيادة اللواء في أي وقت..
فابتسم اللواء (رشدي) وهو يضع حزام الحقيبة على كتفه، وكانت هناك مجموعة من الأمواج المتلاحقة تحول بينهما تضرب الصخور في قسوة، وقال اللواء محافظًا على ابتسامته الواسعة التي لم يعهدها عليه (أحمد) من قبل:
ـ لقد قطعت تلك المسافة من (القاهرة) إلى هنا كي أسألك عن شيء، أريده

وأحتاجه بشدة، وأظن آنه بحوزتك!
ـ أنا تحت أمرك يا سيدي...
فقال له اللواء بلهجة حازمة لم تنعكس على ابتسامته الهادئة:
ـ أريد ملف القضية (١٤٣٠)...
فتسمّر (أحمد) في مكانه عاجزا عن الرد!

الفصل الثاني

(وأُطعمهم لحم بنيهم ولحم بناتهم، فيأكلون كل واحد لحم صاحبه في الحصار والضيق الذي يضايقهم به أعداؤهم وطالبو نفوسهم)

سفر إرميا الأصحاح (١٩:٩)

(القاهرة) رجب عام ٤٥٩هـ

استأذن الشيخ (نور الدين القليوبي) في الدخول على الخليفة (المستنصر بالله)، فانتظر لفترة وجيزة قبل أن يرجع إليه الحاجب ويخبره بالحصول على إذن الخليفة، أجال الشيخ (نور الدين) عينيه في قاعة حكم الخليفة فوجد الجدران وقد زينت بآيات القرآن الكريم التي كتبت بماء الذهب والأرضية الرخامية المفروشة بالأبسطة الفارسية، وتدلت المشكاوات الفضية من السقف، وفي نهاية القاعة كان يجلس الخليفة الفاطمي على كرسيه وبجواره حاشيته، القاضي (عبد الله المرجوشي) والوزير (أبو أيوب الفرداني) وأمين بيت المال (عزيز الدين البازي)

ألقى الشيخ العجوز السلام عليهم، فمد الخليفة يده اليمني التي تحمل الخاتم ذا الفص الفيروزي اللامع، فقبلها الشيخ ثم تراجع خطوتين، فسأله الخليفة:

ـ ما سبب مجيئك يا شيخ (نور الدين)؟

فحاول الشيخ رسم ابتسامة على وجهه وهو يقول:

ـ متّعك الله بالصحة والعافية يا جلالة الخليفة، والله لولا فداحة الأمر ما كنت أزعجت جلالتكم!

فقال الوزير (أبو أيوب):

ـ تكلم يا شيخ (نور الدين) فمولانا أمامه العديد من الأمور الهامة..

فنظر إليه الشيخ ولم يجبه، وظل يوجه كلامه إلى الخليفة قائلاً في رجاء:

ـ لا يخفى على جلالتكم ما حلّ على البلاد من شح في الأرزاق وقلة في الطعام والماء، رغيف الخبز أصبح يُباع بخمسة دنانير، والبيضة الواحدة تباع بثلاثة دنانير، قربة الماء صارت لا تكفي الناس في المنازل، الأوبئة انتشرت من قلة الاغتسال وكثرة الحشرات!

فقال الخليفة في ملل:

ـ نحن على هذه الحال منذ عامين يا شيخ، الأمل في الله وحده!

فوضع الشيخ عينيه في الأرض وهو يقول بصوت منخفض:

ـ لكن الشعب قد ضاقت به الحال، وهم أيضا متضجرون من عدم وضوح الرؤية للبحث عن مخرج لهذه الأزمة..

فقال (عزيز الدين البازي) في غضب:
ـ الشعب؟ أي شعب تقصد؟ نحن نعمل ليل نهار لتوفير الطعام والشراب لهم، وفي النهاية هم متضجرون! أين حمرة الخجل يا شيخ (نور الدين)؟ لولا حسن تدبير وبعد نظر مولانا الخليفة (المستنصر بالله) لفنيت القاهرة بأسرها بعد شهرين أو ثلاثة من بدء الأزمة!
فنظر إليه الشيخ شزرًا وأكمل كلامه كأنه لم يسمع شيئًا:
ـ الشعب جائع يا مولانا، وبجانب الجوع الذي ينهش أكباد الناس هناك صراعات جباة الصعيد وولاتها، هناك مذابح واضطرابات تحدث هناك، والفارون من هذه الجحيم ينزحون إلى (القاهرة) ليقابلوا جحيم الجوع والعطش... ولقد أخبرتك منذ ما يقرب من أسبوع عن بعض الأشياء الغريبة التي شهدتها عيناي!
زفر الخليفة (المستنصر) في غضب ثم سأل في نفاد صبر:
ـ ماذا تريد يا شيخ؟ هل تريدني أن أستسلم للولاة العصاة في الصعيد؟ ولأجل من؟ لأجل أناس يريدون أن تمتلئ بطونهم فحسب.. لقد حاولت أن أجد تفسيرًا منطقيًا لمشاهداتك الغريبة، بعد أن تفقدت بنفسي جبل (الجيوشي) فلم أصل لأي شيء!
ثم التقط (عبد الله المرجوشي) طرف الحديث واعظا:
ـ بدلا من تحميل مولانا الخليفة الهموم، ادع الناس إلى الاجتهاد في العمل، وإلى التضرع إلى الله، وإلى الحث على التقوى.. هذا هو دورك الحقيقي.
فقال (عزيز الدين) مؤمنًّا:
ـ صدقت أيها القاضي الكريم..
وقال (أبو أيوب):
ـ والله ما أصابت بلادنا المجاعات والأوبئة إلا عندما ابتعدنا عن طاعة الله وعن طاعة أولي الأمر.
وصمت الخليفة (المستنصر بالله)!
فأجال الشيخ عينيه بين هؤلاء المنافقين، ثم هز رأسه في تسليم وألقى السلام على الخليفة، وخرج من القصر شاعرًا بخيبة الأمل!
اتجه إلى الجامع (الأزهر) حيث كان من المفروض أن يلقي درس العصر عقب الصلاة، كان العدد قليلاً في المسجد الجامع، ربما يتعدى الثلاثين أو الأربعين ببضعة أفراد، فبدأ كلام القاضي يلعب برأسه وهو يدخل في الصلاة ويقرأ الفاتحة..
هل حقيقي أن سبب الأزمة عدم طاعة الله؟
المجاعة والوباء بالطبع أحد أصناف البلاء، والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ذاق قضمة الجوع وكان يربط حجرًا على بطنه!
أم أنها سياسة (المستنصر) الفاسدة، وحاشية السوء التي أحاطت به، هي التي أودت بالبلاد إلى هذه الكارثة؟
لقد سمع الكثير من الأقاويل التي تدور حول تحكم والدة الخليفة بمقاليد الأمور.. وأن (المستنصر) ليس إلا تابعا ذليلا لها!

والسؤال الأهم: إذا كان الأعيان يجدون المال والطعام بسهولة، نتيجة لقربهم من خزائن بيت المال وامتلاء جيوبهم بالأموال، فكيف يعيش هؤلاء الفقراء، وهم لا يملكون ما يكفي لاشتراء الطعام؟
ترى ماذا يأكلون؟
كيف يحيون؟
ثم قرأ سورة (الكوثر) في عجالة ورفع يديه بالتكبير، وقلبه العجوز يدق رعبًا بعد أن تذكر مشهد المقبرة المفتوحة، والجثث المختفية منها!

الفصل الثالث

من فظائع هذه المجاعة كما رواها ابن أبي حديد المعتزلي:
«واستخفى من سلم من أهل البصرة في آبار الدور، فكانوا يظهرون ليلاً فيطلبون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفأر والسنانير [القطط]، فأفنوها حتى لم يقدروا على شيء منها. فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلوه».

(الإسكندرية) فبراير ٢٠١٢م
القضية (١٤٣٠)!
تلك القضية الشهيرة التي هزت الرأي العام وقتها، وزلزلت أركان وزارة الداخلية التي عهدت إلى أعتى أجهزتها ـ (أمن الدولة) ـ كي يقوم بالتحقيق في تلك القضية!
في عام (٢٠٠٧م) وعند قطعة أرض فضاء (خربة) بجوار كوبري (امبابة)، تم اكتشاف مقبرة فريدة من نوعها!
بالفعل هذا ما حدث؛ لم يتوقع مالك قطعة الأرض، الذي دفع أكثر من ثلاثة ملايين جنيه كي يبني برجًا عاليًا، أن يعثر في أثناء حفر الأساسات على مقبرة مليئة بالهياكل العظمية وجماجم تعود لأطفال صغار!
العاملون بالموقع فروا جميعهم ورفضوا التكتم على الأمر، ما دفع المالك لإبلاغ الشرطة التي قامت بجمع التحريات حول ذلك الموضوع المريب..
بعد شهر من البحث والتدقيق تم التوصل إلى عصابة من أطفال الشوارع تخصصت في التسول والسرقة، وأن تلك العصابة يتزعمها رجل يدعى (شعبان عبد العليم) وشهرته (التبيني) نسبة إلى (التبة) ذلك المكان المرتفع بفعل الأتربة والقمامة والمخلفات، حيث شيّد هناك مملكته الخاصة، يقوم بجمع الأطفال من الملاجئ، ويخطف بعضًا آخر ويضمهم إلى عصابته.. كانت تلك القضية من أكثر القضايا التي شغلت الرأي العام وقتها؛ خرجت وسائل الإعلام تطالب بتطهير البلاد من أطفال الشوارع، وطالبت النيابة بإعدام (التبيني) الذي ثبت من واقع الجثث الحديثة التي وجدت بالمقبرة أنه قام باغتصاب هؤلاء الأطفال قبل قتلهم!
إلى هنا والقصة ليس بها جديد..
قاتل سفاح مغتصب ينال جزاؤه، ويتم إعدامه عقابًا له على جرائمه..
لكن القصة الحقيقية التي أخفتها مباحث أمن الدولة عن الرأي العام والإعلام، تبرز شيئًا مخيفًا لم تشأ قيادات الداخلية أن تعرضه على الجمهور، ورأت أن في عرضه ترويعًا للشعب الآمن المسكين..

الجثث التي وجدت بالمقبرة لم تكن هياكلها كاملة!
الهياكل العظمية للجثث المتحللة كانت تنقص يدا أو ساقا، والجثث الحديثة كانت أمعاؤها فارغة كأن هناك من فتح بطونها وفرغها من محتوياتها!
تم استجواب الأطفال الذين عُثِرَ عليهم مع (التبيني) وبسؤالهم اتضح أن (التبيني) لم يكن يقتل الأطفال ويغتصبهم فحسب، بل كان يلتهمهم أحياء، وكان يتلذذ بقطع أذرعتهم وسيقانهم كي يقوم بالتهامها بأسنانه الحادة، أما البطون فكان يشقها بسكينه الحاد بعد أن يقتل الأطفال ويستخرج الأحشاء، كي يقوم بالتهامها في نهم شديد، وهذا ما سبب الرعب للأطفال وجعلهم يخضعون لسيطرته، خوفًا من مصير أصدقائهم الذين تم التهامهم واغتصابهم أمام أعينهم!
لقد كانت (التبة) التي استقر عليها ذلك الشيطان مرتوية بدماء الأطفال الأبرياء، وبأسفلها استقرت أشلاؤهم، وفوقها استقر (التبيني) متلذذا بالتهام ضحاياه!
اعترف (التبيني) بجميع جرائمه في أثناء التحقيقات ببرود أعصاب غريب، وكان الضابط المسؤول عن متابعة سير التحقيق معه هو (أحمد الجمال)، وقام بحفظ ملف القضية في مكتبه بعد صدور حكم الإعدام على (التبيني) وتنفيذه..
كان السؤال الذي يشغل بال (أحمد الجمال) طوال الثلاثة أيام التي تلت لقاءه باللواء (رشدي) هو:
لماذا يريد اللواء (رشدي) ملف القضية؟
لقد سأله (أحمد) في أثناء جلستهما معا لكن اللواء (رشدي) رفض الإجابة، وألح عليه أن يفكر جيدًا في الأمر وأن يقوم بتسليم الملف إليه في أقرب وقت ممكن، وأخبره أنه سيمكث في (الإسكندرية) لمدة أسبوع، ولم يخبره اللواء (رشدي) باسم الفندق الذي سينزل به، وبلهجة تحمل القليل من التهديد دعا (أحمد الجمال) لتسليمه الملف قبل رحيله إلى (القاهرة).. وعندما سأله (أحمد) عن كيفية العثور عليه إذا وجد الملف، رآه يبتسم في غموض ويقول:
ـ لا تحاول العثور عليّ؛ فأنا سوف أجدك عندما أريد ذلك!
ثم انصرف ساعتها حاملاً صنارته وحقيبته، وذاب بين السيارات المتلاحقة والبشر السائرين على الكورنيش..
كان (أحمد) سجينا بغرفته طوال الثلاثة أيام التي تلت لقاءه باللواء (رشدي)؛ فالمدينة كانت غارقة تمامًا بمياه الأمطار، وتحولت شوارعها إلى شواطئ مفتوحة مثل مدينة (فينيسيا) الإيطالية الشهيرة، كان في تلك الفترة يفكر جيدا في حديث اللواء (رشدي) معه؛ إنه في حاجة ماسة لملف القضية..
احتياج شديد!
ما السبب الذي يدعو ضابطا هاما بأمن الدولة مثل سيادة اللواء، إلى أن يطلب ملفًا لقضية انتهت منذ خمس سنوات؟
وما الذي يجعله متأكدًا من أنه ـ (أحمد الجمال) ـ يحوزه؟
هل هناك قضية شبيهة بها ويريد سيادة اللواء المقارنة بين القضيتين؟
وما سر هذه المعاملة الغريبة من اللواء (رشدي)؟

إن (أحمد) لم يعهد عليه تلك المعاملة الطيبة؛ اللواء (رشدي) يتحدث دائما بلهجة آمرة متعجرفة، ولم يتحدث معه قط بأسلوب طلبيّ!
كانت تلك الخواطر تدور بذهن (أحمد) وهو يشاهد على شاشة التلفاز فيلمًا ملونًا دون حماس وبعقل حائر..
ثم قام (أحمد) وأخرج جهاز الحاسب المحمول الخاص به من حقيبته وقام بتشغيله، وفتح الملف الذي يحمل رقم (١٤٣٠)، فوجد فيه صورًا ضوئية لملف التحقيق مع (التبيني)، أكثر من مئة صورة، ومعها كان هناك ملف صوتي، وصور أخرى لجثث الأطفال التي وجدت بالمقبرة وتم نقلها إلى المشرحة..
ضغط على إحدى الصور، فظهرت أمامه صورة طفل لا يتعدى عمره تسع سنوات، أسمر اللون، أصلع الرأس، وقد تم قضم جزء من ساعده الأيسر، من أسفل كتفه وحتى مفصل ساعده..
أما الصورة التي تليها فكانت توضح نصفه السفلي، فوجد فخذيه وقد تم قضمهما بنفس الطريقة وأصبحا خاليين إلا من العظام البارزة والدماء المتدفقة!
كان (أحمد) يشعر بالاشمئزاز الشديد كلما شاهد تلك الصور، وهو لا يعرف ما الذي دفعه لتصوير صفحات القضية والاحتفاظ بها على حاسوبه الشخصي!
هل بداعي التفاخر؟
أن يذكر أمام أبنائه يوما ما أنه كان مسؤولا عن القبض على عصابة من آكلي لحوم البشر!
أم أنه كان يشعر أن القضية لم تنته بعد؟
إن الملف الصوتي الموجود بملف القضية عبارة عن تسجيل صوتي للقاء أجراه (أحمد) مع (التبيني) قبل إعدامه بأيام قليلة، وقد ذكر فيه (التبيني) العديد من الأشياء لم يلتفت (أحمد) إليها ساعتها..
لكنه اليوم يشعر بحاسته الشرطية ـ التي لم تفتر بعد ـ أن ذلك التسجيل أصبح أهم من القضية نفسها، وأوراقها التي تحمل تفاصيلها التي صار الجميع يعرفها..
كان (أحمد) قد عزم على إخبار اللواء (رشدي) نصف الحقيقة!
يخبره أن ملف القضية قد تم فرمه كشأن جميع الملفات التي أُحرقت يومها ـ هذا هو الجزء الحقيقي في الحديث ـ وأنه لا يملك أية نسخ أو صور ضوئية لملف القضية ـ وهذا هو الجزء الكاذب ـ وأنه آسف للغاية لأنه لم يستطع مساعدته!
حسم (أحمد) أمره، ونظر من شرفة غرفته فوجد الشوارع وقد أصبحت صالحة للسير أخيرًا، بعد ثلاثة أيام لم تكن صالحة فيها إلا للسباحة فقط، فارتدى بذلته السوداء ومن فوقها وضع معطفًا بنيًا ثقيلاً، واستعد للخروج من الغرفة وأطفأ المصباح الكهربي فلم تبق إضاءة في الغرفة سوى الإضاءة المنبعثة من شاشة الحاسب الآلي، ثم أغلق الباب وراءه وخرج يتمشى بشوارع (الإسكندرية)؛ لعل اللواء (رشدي) يجده!

الفصل الرابع

(شوهد في وقت الغلاء الشديد الذي كان ببغداد ونواحيها، في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، امرأة قد شوت ولدها وجلست تأكله. ففطن المسلمون بها، فأخذوها. وبَـقَـيتُ [أي راوي الخبر أحمد الجعفي] معها حتى حملوها إلى السلطان، فقتلها)

(القاهرة) شعبان عام ٤٦٠ هـ

احتشد مئات المصلين من قاطني (القاهرة) بالمسجد (الأزهر) لأداء صلاة العشاء، في تلك الليلة المباركة التي لا تتكرر سوى مرة واحدة في العام، تلك هي ليلة النصف من شعبان، وقد مرت ثلاث سنوات من القحط والجفاف والجدب، كان الناس بالمسجد قبيل الصلاة يتذكرون في حسرة حالهم قبل ثلاث سنوات، وكيف كانوا يحيون في رغد، خاصة أيام الوزير (الجرجرائي) الذي كان آية في حسن التخطيط والتدبير، وجعل (القاهرة) في عهده تعيش أزهى عصورها..

تقدم الشيخ (نور الدين) بعد رفع إقامة الصلاة كي يؤم المصلين، وبعد أن اصطف الجميع وراء الشيخ، سمع الجميع جلبة تأتي من خارج المسجد، فالتفت الجميع ناحية الباب الكبير للمسجد فوجدوا مجموعة من حراس قصر الخليفة يدخلون المسجد الجامع، ووقفوا على ناحيتي الباب كأصنام مصمتة، ثم تبعهم دخول الخليفة (المستنصر) مصحوبًا بعاصفة من الهتافات المؤيدة له والداعية بالصحة وطول العمر والانتصار!

شق الخليفة الصفوف ومعه وزيره (أبو أيوب) والجميع أصبح يهتف في قوة (عاش الخليفة المستنصر)، حتى أصبح وجها لوجه أمام الشيخ (نور الدين) الذي قام بتقبيل يد الخليفة، وتنحنح عن مكانه في خجل كي يؤم الخليفة المصلين بدلا منه..

بعد انتهاء الصلاة، صعد الخليفة (المستنصر) إلى المنبر ووقف يخطب في الناس قائلا:

(الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورحم الله الإمام علي بن أبي طالب، وخلفاءه جعفر الصادق والإمام المهدي عليهم جميعا رضوان الله..

أما بعد..

فقد ابتلي الله بلادنا القاهرة المنصورة بالجوع والغلاء والنقمة والوباء، وأتذكر في هذا الموقف الكريم وأنا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: إذا أضيف البلاء إلى البلاء كان من البلاء عافية!

فنسأل اللـه ـ عز وجل ـ أن يعافينا من كل بلاء، وأن يُذهب عن بلادنا كل نقمة، وأن يتم علينا نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة..
إخوة الايمان والإسلام..
لقد انتشرت في أرجاء (القاهرة) العديد من الأكاذيب والأقوال المغلوطة؛ منها أن أهل (القاهرة) صاروا يأكلون القطط والكلاب والجيفة والميتة من الحيوانات والبشر، وأشيع أن القبور يتم نبشها والتهام الجثث الراقدة بها!
لا تلتفتوا إلى هذه الأقاويل يا عباد اللـه؛ فجميعها إشاعات يروجها أعوان ولاة الصعيد والدلتا وعملاء خليفة (بغداد) الملعون، الذي يأبى أن يرى دولتنا الفاطمية القاهرة وهي تتوسع وتسود..
وأريد أن أطمئنكم بأن الشدة في طريقها إلى الزوال؛ فقد تم إرسال أمين بيت المال (عزيز الدين البازي) إلى الأمير (محمود الشاهر) والي الإقليم الغربي للدلتا، وسوف يعود بإذن اللـه في غضون ثلاثة أو أربعة أسابيع ومعه المدد من حبوب ومواشٍ ومؤن)
فعلت الأصواتٌ بالتكبير وسرت سعادة جنونية بين المصلين الذين أذلهم الفقر والجوع، ثم عاد المستنصر يقول في ثقة:
(أطالبكم ـ إخوة الايمان ـ بالصبر فحسب؛ ما هو إلا شهر واحد وتنفرج الأزمة ونحتفل بعيد الفطر إن شاء اللـه وبلادنا في أبهى صورة لها، وأعدكم أن (القاهرة) ستبقى منصورة بإذن اللـه وستقهر (بغداد) الماجنة وخليفتها الفاسد..
وأذكّركم يا أهل الشيعة المؤمنين بقول الإمام جعفر الصادق: الصبر الجميل هو الذي ليس به شكوى..
فإياكم والشكوى يا عباد اللـه؛ فالفرج صار قريبًا، والشمس قاربت على البزوغ لتبديد ظلمة الليل، والخير سيتدفق عليكم أنهارًا، فعليكم بالصبر يا إخواني.. الصبر!
بوركتم يا عباد اللـه وكل عام وأنتم بخير)
وهبط الخليفة على درجات المنبر، فتسابق الناس على يديه لتقبيلهما، ووقف الحرس شاهرين السيوف في محاولة لتفريق الناس والخروج بالخليفة من المسجد، وفي الخارج كان موكب الخليفة ينتظره محاطًا بالفقراء والحرافيش الذين لم يستطيعوا دخول المسجد لامتلائه عن بكرة أبيه، واكتفوا بسماع الأخبار السارة فهتفوا بأعلى صوت لديهم:
(معك معك يا أبا تميم.. صابرون بلا تسليم!)
وانطلق موكب الخليفة بعد ذلك تشيعه هتافات الحب والدعم.

* * *

دخل الشيخ (نور الدين) إلى داره وهو يتحسس طريقه فيها؛ فقد كانت القناديل مطفأة، وكان الظلام دامسًا، فنادى على الخادم الذي أشعل له أحد القناديل، فصدرت عنه إضاءة خافتة سمحت للشيخ بالجلوس على إحدى الطنافس كي يلتقط أنفاسه، بعد أن تعب وهو يحاول الخروج من المسجد عقب خروج الخليفة

بسبب احتشاد الناس حول الموكب الفاطمي المهيب، ولم يكد يستقر في مجلسه حتى عاد إليه الخادم وأخبره أن هناك ضيفًا على الباب يطلب مقابلته، فتعجب الشيخ؛ فصلاة العشاء انقضت منذ فترة، والليل تشابكت نجومه، فمن هذا الزائر الذي يأتيه في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
والأهم من ذلك، ماذا سيقدم له والمنزل به مؤن تكفي بالكاد إطعامه وإطعام خادمه!
أذن الشيخ لضيفه بالدخول، فإذا به شاب فارع الطول حاد القسمات مهذب اللحية دون استرسال، وكان حاجباه موصولين في خط مستقيم كثيف، وكان يرتدي قفطانا أخضر اللون ويعتمر عمامة بيضاء.. وهو نفسه كان صاحب بشرة بيضاء وعينين واسعتين تملكان نظرة ثابتة مفزعة...
جلس الشاب أمام الشيخ باسم الثغر، ثم قال له:
ـ أنا جارك الجديد يا شيخ (نور الدين)، اسمي (عوف بن موسى العكّاوي) من أعيان مدينة (عكا).
فرد عليه الشيخ بابتسامة هادئة ورحب به في (القاهرة)، وسأله عن سبب ترك مدينته والحضور إلى (القاهرة) وهو يعلم الأزمة التي تمر بها، فرد عليه في غموض:
ـ الأزمة التي تمر بها (القاهرة) هي السبب الرئيسي لحضوري!
فبدت الدهشة على وجه الشيخ، ثم نادى على الخادم كي يوقد قنديلاً آخر، وبعد انصراف الخادم سأل (عوف) الشيخ:
ـ مذ متى و(القاهرة) تعيش هذه الأزمة؟
ـ ثلاث سنوات يا ولدي..
ـ وهل هناك من انفراجة؟
شعر الشيخ بشيء من الارتياب من حديث ذلك الشاب؛ إنه يسأل في اهتمام غريب، كما أنه لم يذكر شيئًا عن السبب الحقيقي لوجوده، إن ولاة مدن (الشام) يدين معظمهم بالولاء للخليفة للعباسي ويتحينون الفرصة للقضاء على الدولة الفاطمية، قد يكون هذا الرجل جاسوسًا، وقد يكون تاجرًا يبغي السؤال عن الوضع الحالي للبلاد كي يتأكد أن سلعته لن تبور..
رد الشيخ في شيء من الفتور وهو يتثاءب:
ـ الفرج عند اللـه وحده يا ولدي...
ـ لكن (المستنصر) أعلن اليوم في الجامع (الأزهر) أن هناك انفراجة ستحدث في غضون شهرين على الأكثر..
بدأت الشكوك تزيد عند الشيخ؛ فالشاب لا يدعو (المستنصر) بالخليفة، وهيئته توحي بأنه رجل جيش وقتال؛ بطوله الفارع وبنيانه القوي، فسأل الشيخ في نفاد صبر:
ـ ماذا تريد يا ولدي؟ لقد دخلت إلى داري في هذه الساعة المتأخرة من الليل كي تسألني عن أمور لا شأن لك أو لي بها، إذا كنت تبغي السؤال عن الأزمة ووقت انفراجتها فاذهب إلى (المستنصر) خليفة المسلمين وسله بنفسك،

ولكن احرص آن تكون عمامتك البيضاء بمنزلك وإلا طارت رقبتك!
فضحك (عوف) قائلا:
ـ لك كل الحق في حكاية العمامة البيضاء يا شيخ، أعدك بتغييرها من الغد؛ فأنا لا أريد لرقبتي أن تطير على أيدي أنصار العمامة السوداء من الشيعة!
ثم بتر ضحكته وقال في جدية:
ـ ولكن عليك أن تعلم يا شيخ (نور الدين) أني لن أذهب إلى (المستنصر)؛ لأن غدًا هو من سيأتي طالبًا العون والمساعدة قبل أن يأكل بعضكم بعضًا، بعد أن أصبحتم تأكلون القطط والكلاب والحمير!
فانتصب الشيخ واقفًا وقال في غضب:
ـ أرجو أن تنصرف الآن فقد حان ميعاد نومي..
فقام الشاب وألقى عليه السلام، وبينما هو يتجه إلى الباب التفت إلى الشيخ وقال له بابتسامة مستفزة:
ـ واعلم يا شيخ أن خليفتك كاذب، ولا يقوى على حل أزمة (القاهرة)؛ الأمير (محمود الشاهر) تم قتله هو و(عزيز الدين البازي) منذ ثلاثة أيام، واستولى الأمير (سيف الدين العابد) على الإقليم الغربي للدلتا..
ثم استطرد مواصلاً استفزازه:
ـ أتمنى لك أحلامًا سعيدة يا شيخ!
جلس الشيخ وحيدًا بعد انصراف ذلك الغريب الذي جعل الشك يدخل في قلبه بدلا من بارقة الأمل التي وضعها (المستنصر) اليوم، أحقا (المستنصر) كاذب؟
وإذا قُتِلَ (محمود الشاهر) و(عزيز الدين البازي) فكيف ستحل الأزمة؟
وجال بخاطره أن يذهب إلى الخليفة في الصباح ويخبره بأمر ذلك الغريب، ودخل كي ينام وقد استقر على ذلك الرأي..
في الصباح، وبعد أداء صلاة الفجر، سمع الشيخ ورواد الجامع (الأزهر) أصوات ولولة نسوية، فخرج فريق من رواد المسجد إلى الخارج يستطلعون الأخبار، فإذا بخشبتين يحملهما عدد من الجنود وتستقر عليهما جثتان، اندفع الشيخ خارجًا من الجامع وسأل أحد الحضور في قلق عما يحدث، فأجابه بصوت باك وهو يشير إلى الخشبتين بسبابته:
ـ جثتا الأمير (محمود الشاهر) و(عزيز الدين البازي)، قتلهما (سيف الدين العابد) وأرسل بجثمانيهما إلى الخليفة!
الملعون!
كيف علم بمقتلهما قبل وصول الجثامين؟

الفصل الخامس

(القاضي بدر الدين كاتب الأسرار بالقاهرة صُودر وحُبِسَ ثم ضُرِبَ بحضرة السلطان الغوري، ثم حُمِي له الحديد ووضع على ثدييه واقتطع ثدياه وأُطعِمَ لحمه)

ترجمة ابن مزهر

(الإسكندرية) فبراير ٢٠١٢م

كان (أحمد) يجلس على أحد المقاهي البلدية المواجهة للكورنيش، حيث صوت (أم كلثوم) المنبعث من المذياع العتيق، ورواد المقهى من البسطاء قد نعس معظمهم في مكانه متأثرًا ببرودة الجو، وصوت (الست) الساحر..

كان (أحمد) يحتسي فنجانا من القهوة الساخنة، عندما أتاه اللواء (رشدي) مقبلا عليه بنفس القميص الأبيض الذي كان يرتديه منذ ثلاثة أيام، وعلى رأسه نفس القبعة، وفوق عينيه استقرت النظارة السوداء رغم أن الساعة تجاوزت الثامنة مساء!

صافحه اللواء (رشدي) وجلس على الكرسي المقابل له، ثم أخذ (أحمد) يقسم له بأغلظ الأيمان إنه لا يعرف شيئا عن ملف القضية (١٤٣٠) وإنه قد تناساها كشأن أي قضية أخرى قام بالتحقيق فيها، وكان اللواء (رشدي) ينظر إليه في ثبات مبتسمًا بزاوية فمه اليسرى ساخرًا، حتى أنهى (أحمد) كلامه، فسأله اللواء (رشدي) في هدوء:

ـ هل تعرف العميد (بلال الشيحي)؟

ـ بالطبع أعرفه؛ لقد كان مدير إدارة مكافحة الإرهاب بمباحث أمن الدولة، لقد كان رجلا مخلصًا في عمله.. كيف حاله الآن يا سيادة اللواء؟

فأخرج اللواء (رشدي) من جيب بذلته صورة فوتوغرافية متوسطة الحجم وضعها أمام (أحمد)، فالتقطها مسرعًا وجحظت عيناه رعبا من هول ما رأى!

كانت جثة العميد (بلال) ممددة على فراش أبيض اللون، وقد غطت جسده ملاءة بيضاء مضرجة بالدماء، أما وجهه فكان مشوَّها بطريقة مريعة حتى إن (أحمد) لم يتعرف عليه للوهلة الأولى؛ كان نصف وجهه الأيمن خاليا من أي لحم، كان عبارة عن عظام مختلطة بدماء متجلطة وقد برزت أجزاء من فكه السفلي وبقايا من الأسنان، أما الأنف فكان من دون أرنبة كأن هناك من قضمها!

ابتلع (أحمد) ريقه بصعوبة ثم دفع الصورة إلى اللواء (رشدي) قائلا بصوت مخنوق:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللـه!

فأعاد اللواء (رشدي) الصورة إلى جيبه وقال في أسى:

ـ لقد تم العثور عليه داخل سيارته بهذا الشكل، كان في طريقه للعودة إلى منزله، وحدث له ما حدث وهو على بعد مئتي متر منه!
ـ وهل توصلتم إلى القاتل أو إلى دافع القتل؟
ـ كل ما استطعنا التوصل إليه ـ بحسب تقرير الطبيب الشرعي ـ أن سبب الوفاة هو سكتة قلبية مفاجئة، وأنه تم قضم أجزاء من وجهه إضافة إلى آثار آسنان حادة قامت بالتهام أجزاء من ساقيه وذراعيه!
فتساءل (أحمد) في دهشة:
ـ قضم وجهه؟
فهز اللواء (رشدي) رأسه مؤكدا على صدق حديثه، ثم استطرد قائلا:
ـ طريقة التهام الضحية لم نصادفها بوحشية كتلك إلا في قضية (التبيني) كما تعلم..
ـ لكن (التبيني) مات!
ـ ربما كان له أعوان، أو أصدقاء، أو حدثت تسريبات عن التهامه لضحاياه فقام أحد المخابيل بتقليده.. وهذا هو سبب مجيئي إليك هنا بسريّة..
أنت الضابط الوحيد الذي نجح في انتزاع اعترافات (التبيني) من بين شفتيه، وأعتقد أنه تحدث معك كثيرا بخصوص حياته وأصدقائه ودوافعه لارتكاب تلك النوعية من الجرائم.
فأطرق (أحمد) في حيرة ثم قال له في استسلام:
ـ لقد أخبرتك بالحقيقة يا سيادة اللواء، وأنا لا أمتلك ملف تلك القضية، ولكني الآن أتمنى لو كنت فعلت واحتفظت به!
فقال اللواء (رشدي) وهو ينهض من مقعده:
ـ أنا أصدقك يا (أحمد) ولا أظنك تتوانى في مساعدة العدالة التي ظللت خادمًا لها طيلة سنوات حياتك السابقة..
ثم استطرد محذرا:
ـ ولكن إياك والكذب يا (أحمد)، وثق أننا سنتقابل مرة أخرى..
فابتسم (أحمد) قائلا:
ـ وأنا أتطلع للقائك يا سيدي..
فلم يجبه اللواء (رشدي) وأعطاه ظهره مبتعدًا عنه، وغاب في الظلام..

* * *

ابتاع (أحمد) في طريق عودته للبنسيون رغيفي (حواوشي إسكندراني) الذي صار يعشقه، وأدمن تناوله في عشائه مستمتعا بطعمه الفريد..
دخل إلى غرفته المظلمة فأضاء النور وقام بفك لفافة الحواوشي على المنضدة الموضوع عليها الحاسب الشخصي الذي لا يزال مضاء، ففاحت رائحته الشهية التي حركت أمعاء (أحمد) وجعلته يبدأ في تناول عشائه دون أن يقوم بتغيير ثيابه، شرع (أحمد) في تناول الرغيف الأول وعيناه مثبتتان على شاشة الحاسوب...
كانت صورة جثة (بلال الشيحي) لا تفارق مخيلته طوال طريق عودته، وكان يلوم

نفسه بشدة على عدم البوح بوجود صور ضوئية لملف القضية على حاسبه الشخصي، إنه قد ترك الخدمة في الداخلية لكن إحساس ضابط الشرطة ما زال يسري في عروقه، كان يشعر أن وراء حادث اغتيال (بلال الشيحي) قضية ساخنة..
قضية هامة..
حتى إن رجلا بحجم (رشدي تعلب) يأتي إليه بشكل خاص للحصول على معلومات بشأن قضية (التبيني)، إنه يذكر أن (التبيني) في أثناء التحقيق معه كان يهذي بأشياء غير مفهومة، وكان يضحك في هستيريا أحيانا، ويبكي كامرأة توفي ولدها حينًا آخر..
لقد كان (التبيني) مجرمًا غير تقليدي، ولكن ما الذي يدفعه إلى التهام الأطفال؟
كان بمقدوره أن يكتفي بتعذيبهم..
بكيهم بالنار..
بجلدهم بالسياط..
ولكن لماذا يلتهم أجسادهم؟
كان ذلك السؤال يثير حيرته وقت التحقيق في القضية، وهذا ما دفعه للانفراد بالتبيني في زنزانته والتحدث معه بشكل ودي حول الجرائم التي ارتكبها، وخاصة اغتصابه وقتله للأطفال!
إن الملف الصوتي الموجود داخل ملف القضية الموجود على حاسوبه، هو عبارة عن تسجيل صوتي لذلك اللقاء..
لا يذكر (أحمد) سبب عدم الدفع بذلك التسجيل داخل ملف القضية..
ربما بسبب انتهاء القضية بإعدام (التبيني)..
ربما لأنه لم يقتنع بما قاله ذلك المجرم...
لكنه الآن يبغي الاستماع إلى ذلك التسجيل؛ لعله يستطيع التوصل إلى خيط يفك لغز مقتل (بلال الشيحي)..
هكذا دارت تلك الأفكار في رأسه وهو يقضم آخر قضمة من الرغيف الأول، ثم نهض ليحضر لنفسه كوبا من الماء يساعده في ابتلاع طعامه، ويطفئ قليلا من النيران المتأججة في حلقه من أثر قرون الفلفل التي عَمِرَ بها رغيف الحواوشي!
وكانت هناك جلبة آتية من خارج الغرفة من أحد الزبائن المقيمين بنفس الطابق، وهو يلعن (خليفة) الكسول الذي أخذ يبحث عن مفتاح الغرفة لنصف ساعة تاركًا إياه واقفًا وهو يكاد يتجمد من البرد..
ابتسم (أحمد) وانتظر حتى هدأت ثورة جاره ثم التقط الرغيف الثاني بيده اليمنى وقد سرت حرارة الفلفل في جسده، ووضع سماعات الرأس (الهيد فون) على أذنيه وضغط على زر التشغيل وبدأ في الاستماع...

الفصل السادس

«وفي سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة حصل الغلاء المفرط بخراسان والعراق وفارس وأذربيجان وديار بكر حتى جاوز الوصف، وأكل الأب ابنه، والابن أباه، وبيعت لحوم الآدميين في الأسواق جهرًا، ودام ذلك ستة أشهر».

(القاهرة) صفر عام ٤٦١ هـ

كان المصلون بالجامع (الأزهر) يستمعون لخطبة الجمعة من الشيخ (نور الدين) بنفوس ثائرة أججها خواء بطونهم، ويأسهم الشديد من حدوث انفراجة لشدتهم المستعصية..

إن وعود (المستنصر) الكاذبة بدأت تفضحه أمامهم، إنسان ضعيف، كاذب، منعزل عن أحوال الناس ولا يشعر بمعاناتهم..

لقد كانت أنباء هزيمة جيشه الضعيف في (الشام) تصل مع الحمام الزاجل فتزيد الكآبة في نفوسهم، كما وردت الأخبار التي تفيد بفشله في السيطرة على تمرد ولاة الصعيد الذين قاموا بإرسال جثث رجاله وأعوانه إلى (القاهرة) تباعًا، كما قام ولاة الأقاليم الشمالية في الدلتا من أبناء عمه بالاستئثار بخير الأراضي الخصبة والمزروعات لأنفسهم، وقاموا بإجبار الفلاحين على العمل قسرًا في الأرض دون أن يأكل أحد من خيراتها سواهم، ففر الفلاحون من تلك السخرة، وآثروا أن تبور الأرض وتفسد المصارف على أن يأكل هؤلاء العتاة من ثمار كدهم، وشعر الناس في (القاهرة) أن الأحوال تتبدل من سيئ إلى أسوأ!

كان الشيخ (نور الدين) قد تولى منصب القضاء بعد اغتيال (إبراهيم المرجوشي)!

كان يوم اغتيال (إبراهيم المرجوشي) يوما لم ينسه أهل (القاهرة) في ذلك الوقت، فقد أتت قافلة من بلاد (المغرب) ابتاعها (المرجوشي) من ماله الخاص، وبمجرد دخول القافلة إلى (القاهرة) هجم عليها الناس بلا وعي، كانوا قد نسوا شكل الثمار والأغنام والإبل، كان الجوع يفتك بأمعائهم وهم يرون قافلة محملة بالطعام والحبوب والأنعام، لقد قاومهم رجال القاضي ـ المقرب إلى الخليفة ـ وحاولوا دفعهم عن القافلة، لكن الكثرة تغلب القوة دائما، لقد التهم الناس بضائع القافلة وهي فوق الإبل، ثم قاموا بالهجوم على الإبل وذبحوها!

هرع القاضي عندما وصلته الأنباء بالتهام قافلته يحاول صد الناس عنها، لكنه كان كمن يحاول دفع هجوم الجراد بكفيه العاريتين!

وبعد أن تم القضاء على القافلة بأكملها، وبعد أن انفض السامر وبات الفقراء للمرة الأولى منذ سنوات شابعين شاكرين، عثر على بقايا جثة (إبراهيم المرجوشي) التي دُهِسَت تحت الأقدام ثم تم التهامها فلم يبق منها إلا

أشلاء..
بعد أن فرغ الشيخ (نور الدين) من الصلاة انطلق خارج المسجد الذي خلا إلا من طلاب العلم، وشيوخهم الذين اتخذوا أماكنهم مستندين على أعمدة المسجد وحولهم طلاب العلم، كانت إحدى الحلقات في المسجد بعيدة عن طلب العلم وعن شيوخ (الأزهر)، كان فيها خمسة من الحرافيش، ثيابهم رثة وأجسادهم ضعيفة وأعينهم ذابلة يشوبها اصفرار سوء التغذية والجوع، كان البادئ بالحديث (راضي الإسكافي) الذي قال:
ـ طفح الكيل يا إخوان، لن نقوى على الصبر أكثر من هذا، المجاعة تدخل عامها الرابعة والأحوال تزداد سوءا..
فرد عليه (عبد الكريم العمري) في حسرة:
ـ لا حول ولا قوة إلا باللـه، هل من المعقول أن تصل بنا الحال إلى ذلك المستوى..
وقال (سعدة الفران) في غلظة:
ـ لا سبيل لنا سوى الحل الذي قدمه لنا (راضي).. (المستنصر) ورجاله أضعف من أن يفكوا هذه الشدة..
وقال (شاهين العزازي) في حماس:
ـ أري أن نقوم بالتنفيذ الليلة!
فأشاروا إليه أن يصمت وهم يتلفتون حولهم في ريبة كي يتأكدوا أن عيون الخليفة المتربصة بالناس في كل مكان ليست حولهم، ثم عاد (سعدة الفران) ينهره في غلظته المعهودة:
ـ اخفض صوتك أيها الأبله، ألا تعلم أن (المستنصر) قد أمر (عز الدين الكلبي) كبير البصاصين بالقبض على كل من يتحدث عن المجاعة ويحاول تأليب الناس عليه؟!
فتكلم (جليل القوّاس) للمرة الأولى قائلا في سخرية:
ـ يريد أن يخرس ألسنتنا التي تقرحت من قلة الطعام والشراب!
وقال (عبد الكريم):
ـ الليلة ينتهي كل شيء.. الجوع الذي نعيش فيه منذ أربع سنوات آن له أن ينتهي..
فقال (راضي الإسكافي) وهو يتأهب للانصراف:
ـ إذن نلتقي الليلة بعد صلاة العشاء، ونذهب إلى دار (عوف بن موسى)...
* * *
جلس الحرافيش الخمسة حول المنضدة الخشبية التي أعدها لهم (عوف بن موسى) وفوقها تراصت صنوف الطعام اللذيذ الذي لم تذقه ألسنتهم منذ بدء الأزمة وحتى قبلها!
لحم مشوي وخضراوات وخبز ساخن، فاكهة وماء عذب.. إن (عوف) تاجر ثري..
تاجر ثري لدرجة لا توصف!
بضائعه تدخل في جنح الظلام دون أن يراها أحد، وبعيدا عن عيون (المستنصر)،

ويجدها الناس صباحا في الأسواق بأبهظ الأسعار؛ رغيف الخبز بعشرة دنانير، والدجاجة بأربعين دينارا، كيلة القمح بعشرين دينارا.. الأغنياء يشترون ويملأون قصورهم، والفقراء لا يقوون أن يفعلوا ببضائعه كما فعلوا بقافلة (المرجوشي)؛ فسوف يتصدى لهم رجال (عوف العكاوي) ومعهم حرس الأغنياء الذين قدموا لحماية البضائع التي يبتاعها مواليهم..
بعد أن امتلأت البطون وسرت القوة في الأبدان وأصبحت العقول خاملة، دخل عليهم (عوف العكاوي) يرتدي جلبابا فضفاضا أبيض اللون ومطرزا بخيوط ذهبية عند منطقة الصدر، وأمر الخدم برفع المنضدة وتنظيف آثار معركة التهام الطعام التي كان أبطالها الحرافيش الخمسة الموجودين بالمكان!
جلس (عوف) بابتسامته الواثقة الهادئة وسطهم، فقال (راضي الإسكافي) في امتنان:
ـ نشكرك على هذه الوليمة الفخمة يا سيد (عوف)!
وقال (جليل القواس) ضاحكا:
ـ الحق يقال، إننا لم نشبع بهذه الطريقة منذ لحظة ميلادنا!
فضحك الجميع بمن فيهم (عوف) الذي قال بعد أن هدأت الضحكات بنبرة تشوبها الجدية:
ـ والآن بعد أن شبع الجميع ولله الحمد، أعتقد أن وقت العمل قد حان!
فكتم الأصدقاء الخمسة ضحكاتهم، وبدا الوجوم على وجوههم، وساد الصمت لبرهة ثم قطعه (شاهين العزازي) قائلا:
ـ صدقت يا سيد (عوف).. أنت أكرمتنا وأطعمتنا وحان الآن تنفيذ الجزء الخاص بنا من الاتفاق.. نحن رجال، ونحترم كلمتنا!
(عظيم!)
هكذا قالها (عوف) في سعادة وهو ينهض من مجلسه، في إشارة لهم كي يخرجوا وينفذوا المطلوب منهم!

* * *

تحت ستر ظلام الليل تحرك الخمسة...
بخطوات حذرة مترقبة اتجهوا نحو المقابر..
إن (القاهرة) بأكملها نائمة الآن، وأزقتها خالية إلا من البصاصين ورجال الخليفة؛ فكان عليهم أن يسيروا بخفة مبتعدين عن أماكن وجودهم..
أخيرًا وصلوا إلى منطقة المقابر، أعلى جبل (الجيوشي) الشامخ، واطّلعوا من فوق الجبل على (القاهرة) العظيمة، فوجدوها كتلة من السواد بلا مصباح منير، أو نيران يشعلها السامرون، فقال (عبد الكريم العمري) في أسى:
ـ يا للخسارة!
فدفعه (سعدة الفران) بقبضته في منتصف ظهره قائلا:
ـ ليس هذا وقت التحسر على ما مضى، هيا بنا لننجز مهمتنا!
فصدّق على قوله أصدقاؤه الثلاثة، وشرعوا يبحثون عن قبر (ليث بن محمود العزازي)، الصبي صاحب الخمسة أعوام الذي توفي ليلة البارحة ودفنه والده

وعمه.. (شاهين العزازي)!
نجح (شاهين) في تذكر مكان القبر، وبالفعل بدأوا في الحفر بأياديهم للوصول إلى الجثة، وعندما وصلوا إليها، سأل (جليل القوّاس) في حيرة:
ـ والآن قد عثرنا على الجثة فكيف نذهب بها إلى (عوف بن موسى)؟
فنهره (راضي الإسكافي) في غضب قائلا:
ـ أيها الغبي! هل نسيت أنه علينا أن نذبح الجثة من رقبتها، حتى يظن (عوف) أننا اختطفنا الطفل وقمنا بذبحه، تماما كما طلب منا؟!
وقال (عبد الكريم العمري) في خوف شديد:
ـ أخشى أن يعلم أننا خدعناه فينتقم منا؛ إن الرجل الذي يطلب في مقابل الطعام والشراب جثة طفل طازجة لهو رجل جدير بأن نخشاه وأن نخشى غضبته..
فقال (سعدة الفران) وقد نفد صبره:
ـ لقد حصلنا على ما نريد، وهو الآن سيحصل على مبتغاه.. لا فرق بين جثة طازجة وجثة محنّطة على ما أعتقد!
فهتف فيهم (شاهين العزازي) غاضبا:
ـ اتخذوا قراركم سريعا؛ فلن أبقى وحيدًا مع هذه الجثة طوال الليل.. إن ضميري يقتلني..
فنظر الأربعة كل واحد منهم إلى الآخرين، ثم تقدم (جليل) في حسم نحو الجثة وأخرج سكينا صغيرًا من جيبه ذبح به الجثة..

* * *

بعد أن فرغ الخليفة (المستنصر باللـه) من حمامه الساخن، دثّره الخدم بإزار أبيض ستر نصفه السفلي بعناية وترك نصفه العلوي عاريًا يتصبب منه العرق من أثر بخار الحمام الساخن، كان الخليفة يلهث من أثر المياه المغلية التي سلقت جسده الضخم..
ألقى (المستنصر) بوجهه على فراشه الوثير، وترك ظهره عاريًا كي يقوم أحد الخدم بتدليكه، وبعد لحظات شعر (المستنصر) بالأنامل الرقيقة التي تضغط على سلسلة ظهره ثم تقوم بعمل حركات دائرية، كي تنشط الدورة الدموية لجسده المترهل الذي أثقلته الدهون والهموم معا..
كاد يستسلم للنوم بعد أن ارتخى جسده وتمددت عضلاته، عندما سمع صوتًا أنثويًا مألوفًا له يقول في سخرية:
ـ ما زلت تعشق التدليك عقب الاغتسال يا (معد)!
اسمه الأصلي!
(معد)... لا توجد سوى مخلوقة واحدة في الكون تجرؤ على مناداته به..
ضحك (المستنصر) وقال:
ـ وما زلت تحبين مناداتي باسمي الأصلي يا أماه!
فضحكت وهي تقوم بالتدليك أسرع وهمست في أذنه قائلة:
ـ وإذا رأتنا إحدى زوجاتك وأنا أقوم بتدليكك، فسوف تلعب الغيرة بقلبها..

فقال في غضب:
ـ فلتذهب النساء إلى الجحيم!
فدوت صفعة قوية على أسفل قفاه وسألته أمه في غضب:
ـ كل النساء أيها الحقير؟
فقام واعتدل جالسًا على طرف الفراش ورد مبتسمًا:
ـ كل نساء الدنيا لا توازي صاحبة الحجاب الرفيع (صفوة اللـه بنت إسحق).. والدة الخليفة..
ثم قام بتقبيل ظاهر يدها اليمني.. فابتسمت حتى ظهرت أسنانها البيضاء العاجية، كانت جميلة رغم كبرها في السن، ممشوقة القوام كشابة في العشرينات، ذات شعر بني مسترسل، ووجه ممتلئ وضّاء كالقمر في ليلة تمامه وإن شابه بعض التجعيدات من تأثير العمر الطاعن..
سألته في حنان ورقة:
ـ كيف حالك يا ولدي؟
فأجابها مهموما:
ـ بخير يا أماه.. ولكن...
فقاطعته واستطردت:
ـ الشدة يا ولدي أليس كذلك؟
فهز رأسه بالإيجاب، فأمسكت بيده وقامت بالشد عليها قائلة في تحفيز:
ـ اثبت يا ولدي.. سوف تجتاز هذه الشدة وتخرج منها سالما.
ونظر (المستنصر) إلى يدها التي تجمع بين النعومة والقوة فوجد في خنصرها فصًا لامعًا بلون أحمر بديع، وحول الفص كانت هناك نقوش ورموز غريبة.
سألها في دهشة:
ـ من أين لك بهذا الخاتم يا أمي؟
فاضطربت وسحبت يدها من كفه وقالت:
ـ هدية..
ـ من أهداكِ إياه؟
ـ تاجر من (عكا) يدعى (عوف بن موسى)، جاء إلى (القاهرة) منذ فترة وجيزة وأرسل إلى القصر مجموعة من الهدايا، كان منها هذا الخاتم..
فلم يعلق (المستنصر) على كلامها، ثم نهض كي يرتدي جلبابًا فضفاضًا ينام فيه، وسمع صوت أمه تقول له في حنان:
ـ أريدك يا ولدي أن تهتم بذلك التاجر، وأن تأمر رجالك بأن يساعدوه في حماية تجارته، يبدو أنه رجل صالح تقي، وقد تكون نجاة البلاد على أيدي رجال من أمثاله!
فقال (المستنصر) وقد ارتدى جلبابه الحريري الأزرق واتجه ناحية الفراش:
ـ كما تشائين يا أماه..
فاتجهت ناحية الباب وابتسمت له في عذوبة قائلة:
ـ تصبح على خير يا ولدي.. ألن تدعو إحدى زوجاتك للمبيت معك؟

ـ لا.. أريد أن أكون بمفردي الليلة..
فانصرفت، وتركته يغط في نوم عميق..

الفصل السابع

(وكان جوع شديد في السامرة، ثم قال لها الملكُ ما لكِ. فقالت إن هذه المرأة قد قالت لي هاتي ابنكِ فنأكله اليوم ثم نأكل ابني غدًا. فسلقنا ابني وأكلناه، ثم قلت لها في اليوم الآخر هاتي ابنكِ فنأكله، فخبّأت ابنها)
سفر (الملوك الثاني)

(القاهرة) يوليو ٢٠٠٧م
كليك.. كليك
(صوت صفير قصير تبعه صوت صرير مزلاج حديدي لباب.. ثم صوت انغلاق الباب في عنف)
(صوت أحمد الجمال):
ـ مساء الخير يا (تبيني)؟
ـ ...
ـ لماذا لا ترد عليّ؟
ـ ...
ـ هل تريد أن أناديك باسمك الحقيقي؟
ـ ...
(أحمد الجمال) في ضجر:
ـ اسمعني جيدا، أنا أعاملك معاملة آدمية حتى الآن، رغم أنك لا تستحقها، وأنا عندي العديد من الطرق التي بإمكانها أن تجبرك على الكلام..
(فترة صمت)
(التبيني) يسأل في فتور:
ـ ماذا تريد مني؟ لقد اعترفت بكل شيء في النيابة.
(أحمد الجمال):
ـ ليس كل شيء!
أنت قتلت وسرقت واغتصبت، ولكن لماذا كنت تلتهم لحم الأطفال؟
(صوت الباب وهو ينفتح وعسكري يخبر (أحمد الجمال) أنه أحضر له مقعدًا كي يرتاح عليه)
(أحمد الجمال):
ـ شكرا يا (عبد الجبار).. أرجو أن تخرج الآن، وإذا احتجتُ أي شيء فسوف أناديك...
(ينغلق الباب في قوة)
يعود (أحمد الجمال) موجها حديثه إلى (التبيني):

ـ ها.. والآن هل تريد أن تتكلم؟
(صوت ضحكات عالية)
(التبيني):
ـ أنت محق في حديثك؛ فلا ضرر من حديثي الآن.. ما هي إلا أيام قلائل ويتم شنقي، فماذا سأستفيد من سكوتي؟
(أحمد الجمال):
ـ تمام!
(التبيني):
ـ ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟
(أحمد الجمال):
ـ لأنه بحكم قراءاتي واطلاعي فإن آكلي لحوم البشر من السفاحين يكون لهم أسلوب وطريقة معينة؛ منهم المرضى النفسيون ومنهم الساديون، ومعظمهم من أصحاب الشهادات العليا، وأنت بعيد كل البعد عن هذه الصفات...
(التبيني):
ـ أنا لا أفهم كلامك، ولكن هل ما سأقوله لك يخفف من حكم الإعدام؟
(أحمد الجمال) ضاحكًا:
ـ بالطبع لا؛ فلا تخفيف لحكم الإعدام بعد تصديق المفتي عليه..
(يزفر التبيني في ضيق ويلعن الشيطان بألفاظ بذيئة لأنه جعله يفعل تلك الجرائم!)
(التبيني) يسأل:
ـ هل سبق لك أن تذوقت لحما بشريًا؟
(أحمد الجمال):
ـ أعوذ بالله! بالطبع لا..
(التبيني):
ـ إذن فقد فاتك نصف عمرك، إن اللحم البشري لذيذ وله طعم لا يقاومه أحد، بعد أن تذوقته أول وهلة علمت لماذا تأكل الأسود والنمور لحم البشر!
ـ أنت إنسان مقزز..
(التبيني) ضاحكا:
ـ أول مرة في حياتي أرى ضابطًا يشعر بالقرف!
(أحمد الجمال) في غضب:
ـ احفظ لسانك أيها الحيوان..
(التبيني) مزمجرًا:
ـ وهل تظنني نزلت من بطن أمي حيوانًا كما تعتقد يا (باشا)؟ لا والله! أنا أيضا كانت لي حياة سوية، وكان لي أب حنون وأم طيبة؛ كانا مزارعين فقيرين، يزرعان طوال العام ويستدينان، وفي الربيع يحصدان ثمارهما فيسددان ديونهما ونأكل بقية العام من أموال الحصاد..
(أحمد الجمال):

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟
(التبيني) يتنهد في حرارة مواصلا كلامه:
ـ توفي أبي وأنا ابن تسع سنوات؛ التهاب الكبد الوبائي فتك به، واستولى أعمامي على الأرض وهربت أمي إلى (القاهرة) وجعلها شقيقها تعمل خادمة في سراي (أمجد شيخون) رجل الأعمال المعروف...
(أحمد الجمال):
ـ كان وقتها رجل أعمال فحسب؟
(التبيني) ساخرًا:
ـ لم يكن تولى منصب الوزارة ساعتها، فلا تقلق يا باشا... عشنا لثلاث سنوات في أمان في رعايته، الحق يقال إن الرجل ساعتها لم يبخل علينا بشيء؛ جعلني أكمل تعليمي وكان يدفع مرتبًا مجزيًا لوالدتي جعلت حالها تتبدل، فصارت أكثر نضارة وابتاعت مصوغات ذهبية بسيطة، وظننت أن الحياة قد أعطتنا وجهها الباسم.. ولكن لا يوجد شيء يستمر على حاله إلى الأبد..
(أحمد الجمال):
ـ ماذا حدث؟
(التبيني):
ـ لقد كنت أعيش أنا ووالدتي في غرفة صغيرة، أسفل السلم الذي يؤدي إلى الطابق العلوي من السراي.. وبجوار غرفتنا كان الباب المؤدي إلى القبو.. طالما حذرتني أمي من النزول إلى هناك، وكنت في بعض الأحيان أسمع ليلا أصواتا غريبة تأتي من القبو، صراخ، وزمجرة كزمجرة الكلاب، وأصوات تراتيل غريبة كتلك التي أسمعها أحيانا في قداس النصارى، كنت بالصف الأول الإعدادي ومع ذلك كنت أهرع إلى حضن أمي مرتعشا وأنا أستمع لتلك الأصوات..
وفي إحدي الليالي العاصفة، ضرب البرق السماء، فانتفضت من نومي مذعورا ولم أجد أمي بجواري، وسمعت الأصوات تأتي من القبو، فسرت القشعريرة في جسدي وتكومت في فراشي مذعورا، لكن الفضول اللعين لم يمنعني أن أتحرك بعد ذلك، أن أفتح باب غرفتي وأتجه إلى باب القبو.. وأن أفتحه كي أعرف ما يحدث بالأسفل!
(فترة صمت)
(أحمد الجمال) يقول في ضجر:
ـ أكمل حديثك أيها الحيوان!
(التبيني):
ـ أنت لن تصدق ما سأقوله..
(أحمد الجمال) في ملل:
ـ بالطبع هبطت إلى قبو السراي فوجدت (أمجد شيخون) يعتدي على والدتك ويغتصبها.. قصة قديمة!
(التبيني) في أسى:
ـ ليتهم كانوا اغتصبوها.. ليتهم قضوا متعتهم ثم تركوها تذهب لحالها؛ إن

مشاهدتي للأفلام العربية وقتها علمتني أن الخادمة لا تستطيع أن تقول (لا) لسيدها في أي شيء، سوف تكون مجبرة على بيع لحمها من أجل الحفاظ على لقمة عيشها، وكان عقلي الصغير وقتها يتهيأ لمشاهدة ذلك المنظر!
(أحمد الجمال) مدهوشًا:
ـ من هم؟ وماذا فعلوا بوالدتك أكثر بشاعة من الاغتصاب؟
(التبيني):
ـ عندما هبطت وحيدًا إلى القبو، سمعت صوت صراخ يأتي من بعيد.. كان المكان مضاء بالأسفل بإضاءة خافتة تسمح بتبين الأشياء بالكاد.. بعد أن هبطت أول درجتين شاهدتهم من بعيد.. أمي مكبلة بالأغلال على الأرض ومن حولها الشموع.. كان فوها مكمما ومع ذلك كانت تصرخ في رعب، وقد باعدوا بين ذراعيها وبين ساقيها فكانت مثل (النجمة) التي كنت أراها في كراستي عندما أفلح في اختبار الأملاء، وعند أطرافها وقف أربعة أشخاص، لم أستطع تبين وجوههم، لكنهم كانوا يرتدون حلات فاخرة وتلمع في أصابعهم خواتم ذهبية، وعند رأسها كان (أمجد شيخون) يقرأ في كتاب مهترئ ويتمتم بلغة غير مفهومة لم أستطع تفسيرها... وفجأة أغلق (أمجد) الكتاب.. ثم صرخ في وحشية: (الياناتان) فأغلق الأربعة كتبهم ووضعوها جانبًا.. ثم عاد فصرخ: (عوفاديا).. فأمسك كل واحد منهم الطرف الذي أمامه، وانحنى (أمجد) على رأس أمي التي أنهكها صراخها المكتوم ونظرت إليه في رعب نظرة لم أنسها قط، ثم ابتسم لها وهجم على رقبتها وأخذ يلتهمها، ثم رفع رأسه وصرخ بفم ممزوج بالدماء: (يام يام).. فالتهم كل واحد منهم الطرف الذي يمسك به في وحشية تامة، ولم يتركوها حتى بقروا بطنها والتهموا أحشاءها..
(أحمد الجمال) يصرخ:
ـ أنت مجنون!
(التبيني) في عناد:
ـ ثم هربتُ من السراي، انطلقت إلى الشارع... وهناك شيدت مملكتي الخاصة بعد أن قرصني الجوع وفرضت سطوتي على العديد من أطفال الشوارع، وأصبحت (التبة) التي أقطن بها مثارا للرعب لدى العديد من الأطفال الذين كنت ألتهم أصدقاءهم أمام أعينهم، لقد استسغت لحم البشر يا عزيزي وسامحت (أمجد شيخون) ورفقاءه على ما فعلوه بأمي؛ فلحم النساء أطيب مذاقًا من لحم الرجال، وأنا نفسي كنت أستمتع بشدة وأنا ألتهم الفتيات الصغيرات بعد اغتصابهن!
(أحمد الجمال) بأعلى صوت لديه:
ـ (عبد الجبار).
(التبيني) ضاحكا:
ـ أخبرتك أنك لن تصدقني... جبان! أنا أصبحت مثلهم.. أصبحت أعشق لحم البشر، ليتهم كانوا تركوا من أمي قطعة أو قطعتين كي ألتهمها!
(صوت صرير الباب وهو ينفتح وقدم عبد الجبار وهي تضرب الأرض كي تؤدي

التحية)
(أحمد الجمال) في غضب:
ـ لا أريد أي صحفي أو إعلامي يلتقي به، ويقتصر طعامه على خضر وأرز فقط دون لحم حتى يحين موعده.. مفهوم يا (عبد الجبار)!
(عبد الجبار):
ـ تمام يا أفندم..
صوت (التبيني) يأتي بعيدا يسأل في سخرية:
ـ ألم أخبرك أن لحم البشر لا مثيل له؟! لماذا لا تجربه يا باشا؟ هل تظنني الوحيد الذي يلتهم اللحوم البشرية في البلد؟ هناك العديد والعديد يا (أحمد) باشا، لكنني الوحيد صاحب الحظ السيئ فيهم..
(صرير الباب وهو ينغلق ثم صوت المزلاج الحديدي وهو يحكم الإغلاق)

الفصل الثامن

(وذُكر عن امرأة منهم أنها حَضَرت امرأة قد احتُضرت [أي في النزع الأخير قبل الموت]، وعندها أختها وقد احتوشوها [أي أحاطوا بها] ينتظرون أن تموت فيأكلوا لحمها. قالت المرأة: فما ماتت حُسنًا حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه. ولقد حضرت أختها وهي تبكي ومعها رأس الميت، فقال لها قائل: ويحك، ما لكِ تبكين؟ فقالت: اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسنًا حتى قطّعوها، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئًا إلا الرأس. وإذ هي تبكي شاكية من ظلمهم لها في أختها)
أبو حديد المعتزلي في وصف واقعة دخول الزنج إلى البصرة ٢٧٧ هـ

(القاهرة) ربيع الآخر عام ٤٦١ هـ
إن (ثريا القليوبي) تشعر أن زوجها ليس على ما يرام!
كانت تطرد عن نفسها الشكوك مرارا وتكرارًا؛ فالقاهرة بأكملها ليست على ما يرام..
لكن زوجها تبدّلت أحواله منذ شهرين؛ أصبح ينام طوال النهار ويستيقظ عند مغرب الشمس، ويخرج من الدار ولا يعود إلا مع أول شعاع للفجر..
إن زوجها ليس على ما يرام، وهي تشعر بذلك!
كيف نمت له تلك العضلات وهذا الشعر الكثيف في جسده؟ وكيف زاد وزنه بهذه الطريقة وهم في زمن المجاعة والشدة؟
إن زوجها ليس على ما يرام، وهي لا تجسر على سؤاله!
لقد أصبح حاد الطباع، متعكر المزاج، سيئ الخلق، بذيء اللسان؛ منذ أسبوع مضي كاد يقتل جارهم لمجرد أنه عاتب ولده على اللعب بجوار داره، وفي الأسبوع السابق له لكم السقّاء لكمة موجعة على فكه السفلي عندما أسقط نقطًا من الماء على أرضية الدار!
إن زوجها ليس على ما يرام، والسر بالتأكيد مع أصدقائه الأربعة!
وهكذا خرجت (ثريا) إلى دار والدها الشيخ (نور الدين القليوبي) أمين بيت المال، وهي تعلم أنه لن ينصفها بأي حال من الأحوال؛ فهي قد تزوجت من (راضي الإسكافي) على عكس رغبة أبيها، الذي كان يرى فيه شابًا مستهترًا، معاقرًا للخمر، غير ملتزم دينيا.. وهذا ما رفضه الشيخ الأزهري وقتها، لكنه رضخ في النهاية لرغبة ابنته وتركها تتزوجه، إلا أنه لم يدخل لها دارًا قط، ولم يقم بمساعدتها وهو يعلم أن زوجها ضيق الرزق.. وحتى بعد أن ظهرت عليه آثار

النعمة عقب توليه خزائن بيت المال ترك ابنته وأطفالها يقاسون مرارة الجوع والعوز دون أن يمد لهم يد مساعدة!
لشد ما تعجبت عندما رأت دار أبيها الجديدة بمدينة (الفسطاط)!
لقد ترك أبوها الدار القديمة بسوق (الأزهر)، وأصبح الآن مواجها لمسجد (عمرو بن العاص) بمدينة تبعد بضع كيلومترات عن أشباح الغلاء والجوع والفقر!
القناديل الصدئة صارت قناديل بللورية تسر الناظرين..
الأثاث الخشبي المتهالك صار طنافس وسُررًا حريرية، بألوان مبهجة تجمع بين الأصفر والأحمر والأزرق..
الأرض عليها أبسطة ناعمة تكاد تقارب الحرير في نعومة ملمسها المريح للأقدام..
جلست على إحدى الأرائك بعد أن أخبرها الخادم أن أباها بالخارج يصلي (الظهر) وأنه في الطريق، وما هي إلا دقائق معدودة وجدت بعدها أباها أمامها بجلباب أزرق يعلوه قفطان أبيض، وعلى رأسه عمامة سوداء عظيمة الحجم تتوسط غرتها ياقوتة حمراء لامعة..
كانت مقابلته فاترة كما توقعت تمامًا، لكنها كانت مضطرة أن تشكو إليه زوجها، وأن تبوح بما يجيش به صدرها..
في البداية كان أبوها لا يهتم بالموضوع الذي تحكي فيه بأنفاس متهدجة تتخلل ـها الدموع، وبعض النحيب على الحظ والقسمة والنصيب، لكنها لاحظت أن أباها بدأ يهتم شيئا فشيئا، فقد سألها عن توقيت ظهور تلك الأعراض على زوجها، وسألها عن أسماء أصدقائه الأربعة، وفي نهاية الحديث أخبرها أنه سوف يبحث في الأمر بنفسه، ودس في يدها صرة من الدنانير ـ على غير عادته ـ ما أثار عجبها من أبيها!

* * *

كان (المستنصر) في ذلك الوقت قابعًا تحت قدمي والدته مسندًا رأسه إلى ركبتها، وهي تعبث بخصلات شعره، كان بالنسبة لها طفلها المدلل رغم تجاوزه الأربعين عامًا، وكانت بالنسبة له الأنثى الوحيدة في حياته التي تستحق أن يكون تحت قدميها، رغم زوجاته الأربع وما ملكت يمينه من نساء ليس لهن حصر!
كان يشكو لها حاله، وكانت هي تشجعه وترشده أحيانا في بعض القرارات التي يتخذها، كان الفارق بينهما أربعة عشر عامًا فحسب، ولذلك كانت العلاقة بينهما وطيدة، حتى إن زوجاته الأربع كن يشعرن بالغيرة وهو يتجه إلى جناحها، أكثر مما يشعرن بالغيرة وهو يهبط إلى (الحرملك)!
كان الشيخ (نور الدين) يتفهم تلك العلاقة جيدًا، ولذلك انتظر طويلا بغرفة العرش لأجل مقابلة الخليفة، ولم يشأ أن يقطع عليه خلوته بوالدته.. الملكة الأم.. صاحبة الحجاب الرفيع والستر الجليل كما كانوا يلقبونها..
كان القيظ شديدا وصار جبين الشيخ يتصبب عرقًا، وجاء في تفكيره أن يذهب دون أن يقابل الخليفة لولا مجيء (أبي أيوب) الذي بقي يتحدث معه ويسامره

إلى آن دخل (المستنصر بالله) باسم الثغر، بخطوات سمتها الخيلاء، فمر من بينهما حتى جلس على كرسي العرش المحبب إلى قلبه، وبدأ (أبو أيوب) بالكلام، فظل يشرح له موقف الجنود المرابطين في دلتا مصر لمحاولة قمع تمرد الفلاحين وفرض الأمن هناك، وكالعادة أظهر (أبو أيوب) للخليفة أن المسألة مجرد مسألة وقت ليس بالكبير، وبعدها سوف يعود الفلاحون إلى أراضيهم ويعم الرخاء بالبلاد..
ظهرت علامات الارتياح على وجه الخليفة الفاطمي، ثم التفت ببطء إلى الشيخ (نور الدين) الذي شرح له خطورة موقف بيت المال، وعدم كفاية الإيرادات، وتطرق أيضا إلى أمر التاجر الشامي غريب الأطوار (عوف بن موسى) الذي صار منزله يجمع العديد من الحرافيش والفقراء، إضافة إلى ثروته الضخمة التي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، رغم نهب بيوت العديد من الأعيان!
فقال الخليفة في ضجر:
ـ أمر (عوف بن موسى) لا يهمني؛ تكفيني فحسب هداياه الثمينة التي يغدق بها على القصر الفاطمي، إنه رجل ناجح، فكيف أحاسبه على نجاحه في الدفاع عن ثروته التي جمعها بعد عناء؟
وهمّ الشيخ (نور الدين) أن يتكلم فأسكته الخليفة بإشارة من يده، واستطرد قائلا:
ـ (عوف بن موسى) مثال رائع للترابط والتكافل؛ إنه يطعم الفقراء والمساكين ولا يطلب مقابلا، إنه يفتح بيته للرعاع والحرافيش كي يقيهم من الجوع المنتشر، وبدلا من أن نشكره، تخبرني أنه غريب الأطوار وأنك تشك في أمره؟!
ثم التفت إلى الوزير (أبو أيوب) وسأله:
ـ ما رأيك في (عوف بن موسى) يا وزير؟
قام (أبو أيوب) بتجفيف عرقه وفكّر كثيرًا قبل أن يجيب على سؤال الخليفة؛ إنه يكره (نور الدين) ويرى فيه خطرًا عظيمًا على كرسيه، لكنه أيضا يرى في (عوف بن موسى) خطرًا لا يستهان به، وزاد من شعوره بخطر (عوف بن موسى) حديث الخليفة المادح فيه، إن هدايا التاجر الشامي تتدفق على قصر الخليفة بلا حساب، منها هدايا من الحرير والجواهر القيمة، يتم بعثها سرًا إلى الملكة الأم التي سلبت هدايا التاجر الشامي لبها فأمرت ولدها بعدم التعرض له!
قال (أبو أيوب) في مكر:
ـ إن (عوف بن موسى) لرجل كريم جوّاد وهذا شيء لا ينكره أحد... ولكن يا مولاي لا بد من النظر بعين الاعتبار لحديث الشيخ (نور الدين)؛ خاصة أن (عوف بن موسى) غريب عن أرض (القاهرة) ونحن لا نعرف عنه أي شيء سوى أنه تاجر قادم من أرض (عكا)..
فسأله الخليفة في غباء:
ـ ماذا تقصد يا (أبا أيوب)؟
ـ أقصد أن نحافظ على أواصر العلاقة المتينة بينه وبين القصر الفاطمي، وفي نفس الوقت نراقبه عن بعد، وندس مجموعة من البصاصين وسط الحرافيش

الذين يستقبلهم كي ينقلوا لنا أخباره، ونعرف ما يدور بداخل منزله...
فأسرع (نور الدين) بالموافقة على اقتراح (أبي أيوب)، فاضطر الخليفة على مضض إلى موافقتهما، وأخبرهما أنه سيكلف (عز الدين الكلبي) كبير العسس باختيار اثنين من البصاصين لدخول دار التاجر الشاميّ.
فانصرف الاثنان وهما يؤديان فروض الولاء للخليفة، شاعرين بالامتنان له بعد أن وافقهما على شكوكهما بأمر التاجر الغريب، وفي طريق الخروج سارا متجاورين فسأل الشيخ (نور الدين) وزير الخليفة على استحياء عن سبب بوحه بشكوكه حول (عوف بن موسى) إلى الخليفة، فأجابه الوزير الماكر:
ـ من مصلحة الخليفة أن يكون حوله أقل عدد من الحاشية، يتفردون بنظرته الحانية وبيديه المفرطتين في العطاء.. وكي أصدقك القول، فإني قد سمعت أقاويل عجيبة حول ذلك التاجر الغريب..
فسأله (نور الدين) في دهشة:
ـ وماذا سمعت عنه؟
ـ الأقاويل كثيرة كما تعلم، لكن ما لاحظته أنا شخصيا أن ذلك التاجر لا يطأ مسجدًا، ولم يره أحد قبل ذلك يخرج في ضوء النهار.. ألم تلحظ ذلك يا شيخ؟
فسكت الشيخ واجمًا وهو يتذكر كلام ابنته عن زوجها الذي امتنع عن الصلاة وأداء الفروض، وصار ينام طيلة النهار ويستيقظ طوال الليل.. يتذكر حديثها عن قوته البدنية التي ظهرت عليه بغتة رغم الفقر والشدة..
يتذكر قولها إن زوجها صار ينمو شعره في جميع أنحاء جسده بصورة سريعة ومريبة!
(أين ذهبت يا شيخ؟)
هكذا سأله (أبو أيوب) ضاحكا وهو يستعد لامتطاء جواده منطلقا إلى داره، فرد عليه الشيخ بابتسامة باردة وأخبره أنه معتل المزاج قليلا، وتركه ينطلق إلى داره، في حين اتجه هو إلى دار ابنته..

* * *

الفصل التاسع

(وفي يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان، وُجدت امرأة هاشمية قد سرقت صبيًا فشوته في تنور وهو حي، وأكلت بعضه، وأقرّت بذلك، وذكرت أن شدة الجوع حملتها على ذلك، فحُبست ثم أخرجت وضُربت عنقها.)
من أخبار مجاعة بغداد الكبرى

(القاهرة) مارس ٢٠١٢م
أمام سراي (أمجد شيخون) وقف (أحمد الجمال) يتأملها، كانت شامخة البنيان مطلية بالكامل باللون الأبيض، وأمامها كانت البوابة الحديدية التي جلس أمامها حارس عجوز على أريكته الخشبية متكئًا في كسل، تعلوه لافتة مكتوب عليها (السراي للبيع)!
ألقى عليه (أحمد) السلام وأخذ يسأله عن سبب بيع السراي، وعن (أمجد شيخون) ومصيره بعد الثورة، فعلم أنه قد فر إلى (سويسرا) قبل بدء محاكمات نظام (مبارك) وأنه قد عرض السراي للبيع، لأنه لا ينوي العودة إلى مصر مرة أخرى..
وسأله (أحمد) إن كان يستطيع أن يشاهد السراي من الداخل كي يشتريها، فأخبره الحارس أن محامي السيد (أمجد شيخون) هو المسؤول عن البيع، وهو الذي يمتلك مفاتيح السراي، فأخذ (أحمد) منه رقم هاتف المحامي، وأوقف سيارة أجرة كي يذهب إلى دار أخيه..
كان (أحمد) قد احتفظ بالتسجيل الصوتي الخاص بلقائه مع (التبيني) على هاتفه المحمول، وقد سمعه أكثر من ثلاث مرات..
إن (أمجد شيخون) شخص مثير للجدل؛ فقد كان رجل أعمال معروفا وصاحب مجموعة شركات عقارية، ثم صار نائبًا في البرلمان حتى جلس على مقعد إحدى الوزارات السيادية!
إن فساد (أمجد شيخون) كان فائح الرائحة لدرجة لا توصف؛ فالأراضي التي كان يبني عليها مشاريعه كان يبتاعها بأبخس الأسعار، صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء ولا أية خدمات، وبقدرة العزيز العليم يتم مد كل الخدمات إليها من صرف وكهرباء وماء بعد أن يبتاع الأرض ببضعة أشهر!
كان (أحمد) يعرفه من أخباره في الصحف فحسب، ولم يسبق له أن التقاه من قبل، وفي العهد الذي حدث فيه التسجيل الصوتي بينه وبين (التبيني) كان (أحمد) لا يجرؤ حتى على المرور من أمام سراي (أمجد شيخون)، فكيف له أن يواجهه ساعتها باتهام ذلك السفاح له بأنه التهم والدته حية؟
إن (أحمد) لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يأتي اليوم الذي يبحث فيه وراء (أمجد

شيخون)، لكنه قد أتى، وعليه أن يهبط إلى القبو كي يتأكد من حديث (التبيني)، ولكن هل يوافق المحامي الخاص به على أن يهبط إلى القبو ويعاينه؟
جال بخاطره أن يصرف النظرف عن لقاء المحامي وطلب معاينة السراي، وأن يستخدم الطريقة القديمة.. يتسلل إلى السراي في جنح الظلام ويهبط إلى القبو؛ لا يوجد عند السراي سوى ذلك الحارس العجوز، وما زالت بقايا آثار الشتاء وبرودته القارسة تظهر واضحة جلية ليلاً، فمن المؤكد أن ذلك الحارس إما سيخلد إلى النوم تحت الأغطية الثقيلة، وإما سيجلس حول مدفأة من النار المستعرة يستدفئ بها ويصنع عليها كوبًا من الشاي الثقيل...
في كل الأحوال سوف تكون الظروف مهيأة لاقتحام السراي وتفقد القبو، وسوف تساعده لياقته التي لم تفسد بعد، وشجاعته التي ما زال يتحلى بها، وهداه تفكيره إلى تنفيذ مخططه في مساء الغد؛ فقد جاء من (الإسكندرية) إلى (القاهرة) مباشرة دون أن يستريح، وقد ترك معظم ملابسه في البنسيون، لأنه يعلم أنه لن يقيم في (القاهرة) سوى أيام معدودة يعود بعدها إلى شاطئ (الإسكندرية) الذي سبر أغواره، ولذلك فاتجه مباشرة إلى دار شقيقه كي يستريح ويستعد لمهمة الغد الشاقة!

* * *

إن شقة (فهمي) قد راقت لشقيقه؛ ذوقها بديع، وأثاثها به لمسة جمالية تجمع بين التناسق والبساطة، وألوان غرفة المعيشة زرقاء زاهية مثل أمواج بحر (الإسكندرية) المتلاطمة، وطاقم الصالون (إنتريه مودرن) لبنيّ اللون وثير الجلسة..
إن (فهمي) طبيب شاب في مقتبل الثلاثينات من عمره، يعمل بمستشفى حكومي نهارًا، وليلا يذهب إلى عيادته الخاصة، عيادة صغيرة بباب اللوق تدر عليه دخلا لا بأس به يساعده على الادخار لأجل الزواج!
إن (فهمي) قد ذكر لشقيقه في أحد خطاباته أنه قد تعرف إلى فتاة جميلة ورقيقة، من عائلة ذات منصب وحسب تدعى (جيلان) وأنه قد عقد العزم على خطبتها.. فبارك له أخوه تلك الخطوة التي أغفلها هو نفسه، في خضم حياته المتوترة التي خاضها بين جنبات الداخلية محاولا العثور على ذاته الضائعة..
ربما داخلته الغيرة بعض الشيء من شقيقه الذي كان يراه دائما محبوبًا من والدته أكثر منه، وعندما أراد والده أن يجعله مثل أخيه الأكبر في الصرامة والحياة العسكرية، وقفت له والدته بالمرصاد وجعلته يعيش حياة مستقرة دون تعقيدات شقيقه، فنشأ محبا للموسيقي والفنون وتفوق في دراسته فالتحق بكلية طب قصر العيني، وتفوق عاطفيا فصار له بدلا من الحبيبة ثلاث، وساعده على ذلك وسامته الواضحة وملامحه الدقيقة التي تقارب في جمالها، جمال ملامح والدته ذات الأصول الشركسية صاحبة البشرة البيضاء والشعر الأسود الفاحم.. في حين كان (أحمد) يحمل معظم ملامح والده بوجهه الأسمر الممتلئ وعينيه الواسعتين، وأنفه الأفطس الذي استقر تحته شارب تم تهذيبه بعناية..

بمجرد آن رآه شقيقه احتضنه في حرارة وقبله ودعاه إلى آن يخلد للراحة حتى يعود من عيادته؛ فقد وصل (أحمد) إلى دار شقيقه في الخامسة مساءً قبيل موعد نزوله إلى العيادة بساعتين، وأطلعه (فهمي) على ما بالثلاجة من أطعمة يتناول منها ما يشاء، فشكره (أحمد) ثم دخل إلى الغرفة التي أعدها له شقيقه، فوجدها نظيفة ومرتبة، وفوق الخوان الخاص بها استقرت صورة كبيرة لوالدهما بزيه الشرطي وهو يتسلم أحد الأوسمة من اللواء (أحمد رشدي) وزير الداخلية الأسبق، ويصافحه في امتنان!
أخذ شقيقه يقص عليه خلال ساعة كاملة قصة لقائه بخطيبته، وكيف أنه كان يعالج شقيقها الذي أتى إلى المستشفى مصابا بنوبات غريبة من الصرع، وكيف أنه عمل على حالته بكل اجتهاد، حتى أثنى عليه والده المستشار السابق، وكيف توطدت العلاقة بينه وبين ابنته حتى كللها بإعلان خطوبتهما..
كان (أحمد) يستمع إليه من دون مقاطعة وهو يتثاءب أكثر من مرة، لقد كان أخوه معجبًا بخطيبته وعائلتها أشد الإعجاب؛ فقال وهو يربط رابطة العنق الخاصة به أمام المرآة:
ـ إنها عائلة غريبة يا (أحمد)؛ منغلقون على أنفسهم رغم ثرائهم الفاحش الذي تتجلى آثاره واضحة في ملابسهم وفي طعامهم الفاخر الذي يحتوي على أرقى أنواع اللحوم.. إن قصرهم بالداخل يشبه القصور التي كنا نراها في السينما ونحن أطفال صغار، في بعض الأحيان يا أخي العزيز أتعجب من موافقتهم على خطبتنا رغم إحساسي بأني لست العريس المناسب لها!
وظل (أحمد) صامتًا لا يرد على أخيه الذي قام بتجهيز حقيبته، حتى تجاوزت الساعة السادسة مساء فانطلق مسرعًا إلى عيادته..

* * *

الليل وسكونه الذي لم يعتده (أحمد الجمال) من قبل!
في القديم كان الليل هو وقت العمل، الليل هو وقت الانطلاق، الليل هو وقت التحقيقات.. وفي الصباح تنكشف الحقائق ويتم القضاء على المجرمين..
استيقظ (أحمد) من نومه نحو التاسعة مساء فتوضأ وصلى العشاء، وجلس أمام شاشة التلفاز يتابع مسلسلا عربيًا قديمًا لنور الشريف شاهده أكثر من خمس مرات، لكنه كان التسلية الوحيدة المتاحة بين قنوات اللقاءات المملة والمحاورات الغبية..
كان عقله مشغولاً بسراي (أمجد شيخون).. كيف سيقتحمها؟
ماذا سيحضر معه من أدوات؟
وابتسم ساخرا وهو الضابط السابق؛ يفكر في كيفية اقتحام سراي كمجرم ناشئ يتلمس طريقه في عالم الجريمة..
شعر (أحمد) أن رئتيه لا تستطيعان تحمّل جو شقة أخيه الخانق؛ لقد تعودت رئتاه على نسيم البحر الرطب، وعلى هواء الليل المنعش، فخرج إلى شرفة الشقة التي يتعدى طولها الثلاثة أمتار وتطل على كورنيش (المعادي) البديع، وأشجار (الأكاسيا) المنمقة التي تزين أرصفته..

كانت الشقة بالدور الثالث، ما أتاح له التمتع بمنظر الكورنيش البديع دون الخوف من الارتفاعات الشاهقة التي يخشاها بشدة..
كان النسيم بديعا والهواء منعشا، لكنه ليس كنسيم (الإسكندرية) الذي لا مثيل له!
كان الشارع شبه خال في ذلك الوقت إلا من أضواء كشك خشبي صغير على الجهة المقابلة للبناية، وأصوات سيارات مارقة في سرعة جنونية تستغل خلو الشارع من المارة..
وعلى إحدى الدكك الرخامية البيضاوية الموضوعة بجوار الكشك، والتي يشتهر بها أي كورنيش في (مصر)، جلس رجل رث الثياب يرتدي قبعة ثلجية (آيس كاب) متهالكة ويرتجف من شدة البرد وهو مطأطئ الرأس.. لم يستطع (أحمد) أن يتبين ملامح الرجل؛ فقد كان وجهه موضوعا في الأرض، وشعر (أحمد) بالأسى لذلك المسكين الذي لا يجد طعاما أو مأوى في هذه الليلة الباردة..
وفجأة..
رفع الرجل رأسه ونظر إلى (أحمد)!
وليته لم ينظر إليه..
لقد تجمدت العروق في دم الضابط السابق عندما رأى وجهه!
عيناه كانتا كجمرتي نار سقطتا من جهنم، ووجهه كان مليئًا بالشعر الأسود المتناثر في كل مكان إلى جانب شاربه ولحيته..
ثم ابتسم ونزع القبعة من على رأسه، فظهر شعره الثكيف غير المصفف كشعر (شمشون) قبل أن يسقط في براثن (دليلة)...
ظهرت أنيابه الحادة وأسنانه غير المتناسقة التي تخللها بعض السواد..
لم يكن شكله كبشري عادي..
كان يشبه شيئا يعرفه جيدا منذ الصغر..
كان يشبه (الغول)!

الفصل العاشر

(وقد حكى الذهبي في ذلك حكايات يقشعر الجلد من سماعها. قال: وصارت الطرق مُزرّعة بالموتى، وصارت لحومها للطير والسباع، وبِيع الأحرار والأولاد بالدراهم اليسيرة)
من أخبار الشدة المستنصرية

(القاهرة) رمضان عام ٤٦١ هـ
عندما ارتفع صوت آذان المغرب من أول أيام شهر (رمضان)، انهال (المستنصر) وحاشيته وأقاربه على السماط الممتد أمامهم، كان الجوع يفتك بأكبادهم والعطش جفف أمعاءهم، لقد شاءت إرادة اللـه أن يوافق شهر رمضان المعظم أشد أيام الصيف حرارة، وأكثرها قيظا؛ فمكث الخليفة ورجاله في قصورهم طيلة النهار، وهم يتشممون رائحة الطواجن واللحوم المشوية وجميع أصناف الطعام التي يتم تجهيزها استعدادا للإفطار...
أما الفقراء والمساكين، فقد مر عليهم اليوم كأي يوم سابق؛ فهم جائعون منذ ثلاث سنوات، ورأوا في شهر رمضان ثوابا مضاعفا على صبرهم الطويل الذي لم تظهر له نهاية حتى الآن!
كان (جليل القواس) يستمع لأذان المغرب بعينين دامعتين ونفس منكسرة، وأطفاله الثلاثة الصغار يبكون من شدة الجوع، وزوجته التي أذهب الجوع نضارتها وتحمل رضيعها تنظر إليه في عجز وذلة..
اختمرت الفكرة في ذهن (جليل القواس)، فاندفع خارجا من منزله، لا يكاد يرى أمامه، وبقايا ضوء الشمس تغادر أرض (القاهرة)، وصعد إلى جبل (الجيوشي)، حيث المقابر.. وأخذ ينبش في أول مقبرة وقعت عليها عيناه عن جثة طازجة بها لحم يسد جوعه هو وعائلته، وأخيرا بعد وقت من الحفر وسط التراب وكان الليل في طريقه لإسدال أستاره، وجد جثة حديثة لطفلة صغيرة شاحبة الوجه، لكن ساقها وساعدها ووجنتيها مملوءة باللحم، فلمعت عيناه من فرط الانفعال ثم أعمل فيها أسنانه الحادة، قبل أن يشعر بيد توضع على كتفه فالتفت سريعا وراءه فوجد (سعدة الفران) والزبد يسيل من شدقيه، فأفسح له (جليل) المكان فانكفأ (سعدة) على الجثة يلتهمها في نهم!
حمل (جليل) بقايا الجثة في جوال، وعاد إلى داره في جنح الظلام، فوجد زوجته وأطفاله قد غطّوا في نوم عميق من فرط البكاء من شدة الجوع.. فأخرج من الجوال بقايا الجثة، وأعمل فيها السكين يقوم بتشفية لحمها من الجلود والعظام، ثم أخذ يسلقها ويتذوق مرقها بدم بارد!
* * *

تهافت علماء الأزهر ورواده من المصلين على يد الخليفة (المستنصر) لتقبيلها، وكان وراءه (أبو أيوب) و(نور الدين) و(عز الدين الكلبي) يشاهدون ذلك المنظر الذي أثار دهشتهم؛ فلماذا يفرح الشعب بهذا الحاكم الضعيف؟
ولماذا يتهافتون لتقبيل يده التي منعت عنهم وعن أسرهم المال والطعام؟
وتذكر الشيخ (نور الدين) أمر التاجر الغريب فهمس في أذن (أبي أيوب):
ـ هل أتاك (عز الدين الكلبي) بأخبار (عوف بن موسى)؟
فرد عليه هامسا بدوره:
ـ صه الآن يا شيخ، فها هو يقترب لتقبيل يد الخليفة.. تعال معي بعد انقضاء تلك الجلبة كي نتسحر معا، وأبلغك بما وصل إلى (عز الدين الكلبي)..
فصمت الشيخ وهو يراقب (عوف بن موسى) وهو يقترب من الخليفة مبتسمًا كذئب البراري المتربص بفريسته...
بعد انقضاء تلك الهوجة اختلى (أبو أيوب) بالشيخ نور الدين في قصره المجاور لقصر الخليفة والمحاط بكتيبة كاملة من العسكر، وبعد احتساء مشروب القرفة الباردة التي أنعشت صدريهما، جلسا في شرفة القصر يتابعان سريان نهر النيل الذي صار كترعة صغيرة، بعد أن جف معظم مائه وتلوث جزء كبير منه فسادت المجاعة وانتشرت الأوبئة، جلسا متقابلين، فاستحث الشيخ (نور الدين) (أبا أيوب) على الحديث قائلا:
ـ والآن قد صرنا منفردين يا (أبا أيوب)، فأستحلفك باللـه أن تخبرني بما قاله لك (الكلبي)!
فسأله (أبو أيوب) في اهتمام:
ـ ولماذا كل هذا الاهتمام بأمر ذلك التاجر؟
ـ لأني أشعر أن هناك شيئًا مريبًا يحدث في داره، وهذا الشيء سوف يضر جميع سكان (القاهرة) بمن فيهم أنت وأنا!
ـ شيء مثل ماذا؟
فأجابه في نفاد صبر:
ـ هذا ما أسألك عنه يا (أبا أيوب).. ما رآه البصاصون في دار (عوف بن موسى)..
فقال (أبو أيوب) في استسلام:
ـ ما أخبرني به البصاصون لن يستوعبه عقلك..
فأجابه الشيخ متلهفا:
ـ فقط أخبرني، وأعدك أن أحاول الاستيعاب..
فاقترب منه (أبو أيوب) وقال في جدية شديدة:
ـ إن (عوف بن موسى) يقوم بطقوس غريبة في داره..
فسأله الشيخ في حيرة:
ـ طقوس من أي نوع؟
ـ طقوس أقرب ما تكون إلى الطقوس الوثنية القديمة التي كنا نقرأها في مؤلفات المؤرخين القدامى؛ كتب بها رموز وكتابات غريبة يقف ويتلو منها أمام صورة تمثل عنزة لها جسد آدمي وتجلس القرفصاء، ويشرب مع الموجودين

شرابا أحمر قاتم اللون..
ـ نبيذ؟
ـ هذا ما ظنه البصاصون في بداية الأمر، لكنهم اكتشفوا أن طعمه بعيد كل البعد عن الخمر أو النبيذ.. إنه دماء.. دماء طازجة!
اتسعت عينا الشيخ في دهشة شديدة وقال بصوت مختنق:
ـ إنه لأمر غريب...
ـ والأمر الأكثر غرابة أن البصاصين الثلاثة الذين كلفهم (الكلبي) بجمع تلك المعلومات اختفوا بعدها ولم نجد لهم أثرا..
فقال الشيخ في قلق:
ـ أنت ترعبني بحديثك هذا.. لقد كنت جارا لذلك المشعوذ بسوق (الأزهر) قبل أن أنتقل إلى (الفسطاط)!
ـ ولذلك فقد فضلت عدم الإفصاح للخليفة عن هذا الحديث، حتى يستطيع (الكلبي) جمع المزيد من الأدلة والشهود يكشف بهم حقيقة ذلك الملعون..
ـ وفّقه الله..
ـ وعليك يا شيخ ألا تتحدث في هذا الأمر مع أي شخص، حتى مع أهل بيتك..
فتذكر (نور الدين) شكوى ابنته من زوجها، من المؤكد أن زوجها من رواد دار (عوف بن موسى) وهذا سبب تبدّل حاله..
وانطلقت صرخة مدوية في قلب الليل على بعد من قصر الوزير، فانتفض الرجلان في رعب وأمر (أبو أيوب) أحد الحراس أن يذهب ويستبين الأمر، فعاد الحارس يقول لاهثا:
ـ لقد اغتيل (عز الدين الكلبي)؛ قتلوه أمام زوجته وأطفاله ومثلوا بجثته وانتزعوا أحشاءه..
فسأله (أبو أيوب) غاضبا:
ـ والجناة، أين هم؟
فرد الحارس قائلا:
ـ الجناة عديدون؛ مجموعة من الرعاع قرصهم الجوع والعطش وضاقوا منه ومن تهديداته، فهجموا عليه وهو عائد إلى داره عقب صلاة القيام، وضربوا ضربتهم!
فتبادل الرجلان نظرة ذات مغزى، وأمر (أبو أيوب) الحارس بالانصراف وعادا إلى جلستهما وقد ملأ قلبهما الحزن..
والغضب..
قطع (أبو أيوب) الصمت قائلا في حسم:
ـ سوف أذهب إلى دار (عوف بن موسى)..
فهتف الشيخ (نور الدين):
ـ هل جننت؟
فرد في تصميم:
ـ لا سبيل لكشف أمره سوى أن أرى بأم عيني ما يحدث هناك..
ـ لكن شكلك المميز قد...

فقاطعه (آبو آيوب) قائلا:
ـ سوف أحلق لحيتي وشاربي، وأضع عصابة حول عيني اليمني وأتظاهر بأني أحد الفقراء الذين يبغون الطعام والشراب فلا يعرفني أحد.. إن التظاهر بالفقر هو أسهل الأشياء!
فقال الشيخ (نور الدين) في تردد:
ـ مغامرة خطيرة وغير محمودة العواقب، وأرى أن تتمهل قليلاً قبل أن تقوم بها..
فنهض الوزير الشجاع من مكانه قائلا بحزم:
ـ لا سبيل للتراجع، لقد عقدت العزم على ذلك..
فتنهد الشيخ في تسليم ودعا اللـه له أن يحفظه من كل مكروه، وأن يعود سالما إلى داره وأهل بيته، فشكر الوزير له ذلك، وأذن له بالانصراف...

* * *

داخل دار (عوف بن موسى) كان الأصدقاء الخمسة يقفون أمامهم ضحيتهم، كل فرد منهم عند أحد الأطراف، كانت حلقة الشموع المحيطة بهم ولهيبها المتراقص تشعرهم بالتوتر، لكن الخوف زال عندما دخل عليهم (عوف) بنظراته المرعبة التي أرسلها من تحت حاجبيه الكثيفين، وجاءت من ورائه امرأة ترتدي قلنسوة حمراء غطت جسدها بالكامل وحجبت وجهها عنهم، ثم وقفت عند رأس الضحية تمامًا فتنحى (راضي) عن مكانه بضع خطوات، ثم أخرجت كتابًا عتيقًا مهترئ الصفحات من تحت القلنسوة، وبدأت في تلاوة كلمات بلغة لم يفهمها الأصدقاء الخمسة، كانت تتلو الكلمات كأنها صلاة خاشعة بصوت رفيع مبحوح أشبه بفحيح الأفاعي السامة، وكان (عوف) يقف خارج دائرة الشموع وقد أغمض عينيه واستمع في خشوع إلى تلك الصلوات الغريبة التي تتلوها المرأة..
(سيني تينار.. تينليريمي ابسيليري)..
(تشادي تشادي.. بيز سيز.. بي إيفكاريست.. سينيوريز)
وعند مقطع معين أغلقت المرأة الكتاب ونطقت بكلمة واحدة وهي تشير إلى الضحية المذعورة بيديها المجعدة...
(يام.. يام)!
فلمعت أعين الأصدقاء الخمسة الذين أصبحت هيئتهم بعيدة كل البعد عن هيئة البشر، وصاروا وحوشًا ضارية يغطي أبدانهم الشعر الكثيف ويسيل الزبد من أشداقهم، وهجموا على ضحيتهم يفترسونها!

الفصل الحادي عشر

(ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية. وغُرّق في دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذَلك. ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث ألفوه، وقل منعهم منه، لعدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضراوات وكل ما تنبته الأرض)
المقريزي في وصف المجاعة التي ضربت الدولة الأيوبية

(القاهرة) مارس ٢٠١٢م
كان (أحمد) يشعر بالخجل الشديد وهو يدخل مع شقيقه إلى المنزل، بعد أن قضى أكثر من ساعتين في الشارع بمنامته الزرقاء التي جعلت جسده مثلجًا من شدة البرودة التي تعرض لها..
لقد هبط (أحمد) سريعًا نحو الشارع عندما رأى ذلك المخلوق جالسًا على الدكة الرخامية، اندفع بمنامته وأغلق باب الشقة وراءه ناسيا أنه لا يملك مفتاح المنزل!
عندما هبط إلى الشارع لم يجد أحد جالسًا على الدكة الرخامية، لم يجد إلا الكشك الخشبي بأضوائه الساطعة، وبداخله شاب في أوائل العشرينات من عمره يرتدي جلبابا بلديا رصاصي اللون، وقد أحاط جسده ببطانية ثقيلة، ونظر إلى (أحمد) في رعب وهو يفتش في كل مكان على الكورنيش مثل المجانين تمامًا!
سأل (فهمي) شقيقه بعد أن قام بتغيير ملابسه وارتدى منامة خضراء مزركشة، فوقها (روب دي شامبر) بني اللون:
ـ هل أحضّر لك العشاء؟
فأجابه (أحمد) وهو ما زال يشعر بالخجل:
ـ لا.. أشكرك، سوف آخذ حماما ساخنا ثم أخلد إلى النوم..
فجلس (فهمي) إلى جانبه وألصق فخذه بفخذ شقيقه وقال له في ود أبوي:
ـ إياك أن تظن أني غاضب مما حدث.. أنا فحسب حزين على ما آلت إليه حالك..
فقال له (أحمد) في غضب:
ـ حالي لا شأن لك بها، ولا تحاول أن تظهر مشاعر الأبوة المصطنعة تلك أمامي؛ فأنا أخوك الأكبر..
اندهش (فهمي) من ردة فعل شقيقه الغاضبة، فخلع عويناته الطبية وقال في أسف:

ـ إني أعتذر لك عن طريقتي في الحديث، ولكن عليك أن تعلم جيدا أني أهتم لأمرك، وأني بالفعل أتمنى لك كل خير..
فنهض (أحمد) من جواره قائلا في فظاظة:
ـ أشكر لك مشاعرك، لكني في غني عنها، واعلم أني سوف أترك منزلك وأعود إلى (الإسكندرية) بعد يومين على أقصى تقدير..
فنهض (فهمي) قائلا في جزع:
ـ لماذا العجلة يا أخي؟ لقد كنت أنوي أن أعرّفك بخطيبتي، لقد حدّثتها عنك كثيرا وكانت تتطلع إلى لقائك..
فالتفت (أحمد) متجها إلى غرفته كأنه لم يسمع شيئا، وقال في برود:
ـ تصبح على خير يا (فهمي)..

* * *

عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة مساء في يد (أحمد الجمال)، وضع الأشياء في حقيبة جلدية سمراء اللون أمسكها في يده.. لم يحتك به شقيقه طوال اليوم، ولم يخرج (أحمد) من غرفته طيلة الفترة التي كان بها شقيقه في الشقة، حتى عندما جاء موعد الغداء لم يخرج لتناوله، مفضّلا أن تكون معدته فارغة وهو يقوم بعملية اقتحام لصوصية لم يقم بها من قبل..
كانت السراي بضواحي المعادي، في منطقة متطرفة بعيدة عن العمران، تجاورها سراي (علاء مرزبان) الفنان المعتزل، وسراي (منصور العتريس) المستشار السابق بمحكمة النقض..
هبط (أحمد) من السيارة الأجرة التي كان يستقلها على رأس الشارع المؤدي إلى السراي، شارع هادئ به طريقا ذهاب وعودة يفصلهما رصيف من حجر واحد، وعلى جانبيه كانت الأشجار العملاقة المتمايلة في خفة على أعمدة الإنارة الحكومية التي أضاءت الطريق بأسره، كان حيا هادئا للغاية، ذلك الهدوء الذي يجعلك تصاب بالريبة، ويجعلك تشتاق إلى زحام (القاهرة) وضوضاء البشر التي تشعرك أنك ما زلت حيا!
كان الحارس ـ كما توقع تمامًا ـ جالسًا على الأريكة الخشبية وقد أشعل النيران في مدفأة صغيرة يتطاير منها الشرر، وبجواره كان يجلس أحد أصدقائه يرتدي مثله جلبابا وعمامة، ويتسامران في ذلك الصقيع...
تسلل (أحمد) إلى السور الخلفي للسراي، كان معه حبل ينتهي بخطاف حديدي فقام (أحمد) بإلقاء الحبل كأي لص (هجّام) محترف حتى تعلق الخطاف بطرف السور الإسمنتي، فصعد معتمدًا على الحبل الذي ثبته الخطاف، وبعد عشر دقائق أصبح (أحمد) داخل السراي.. وزيادة في الاحتياط ترك (أحمد) الخطاف معلقًا على السور والحبل في الجهة الداخلية للسراي، حتى يتسنى له الهرب سريعا إذا شعر بخطر شديد!
كان (أحمد) قد خلع بذلته وبنطاله وقميصه، واكتفي برداء أسود كامل مثل زيّ (النينجا) وقام بوضع غطاء الرأس الذي يغطي أيضا الفم، فأصبح تماما ـ إذا تغاضينا عن بطنه المتدلي من فرط أكل الحواوشي الإسكندراني ـ مثل رجال

(النينجا) الذين نراهم في الأفلام!
لقد دخل من إحدى النوافذ العملاقة الأرضية التي تمتلئ بها تلك الطرز من السرايات، كان معه قضيب حديدي هشم به الزجاج، ثم مد يده كي يفتح المزلاج..
قام بتشغيل ضوء الكشاف الذي معه، فوجد نفسه في قاعة كبيرة، على جانبها بيانو عظيم، وفي صدرها مكتب عتيق وراءه رفوف مليئة بالكتب تكاد تصل حتى سقف السراي العالي، انطلق (أحمد) خارجا من الغرفة ورأى بهو السراي، حيث كانت الملاءات البيضاء موضوعة على الأثاث، ما صنع مشهدا أثار الرعب في نفسه، فتجاوز تلك الردهة معتمدا على تلك البقعة الضوئية الكبيرة التي يصنعها الكشاف، وأخذ يبحث بها عن الباب المؤدي إلى القبو..
وأخيرا وجده!
باب خشبي مقبضه على هيئة أسد برونزي يحمل في فمه حلقة معدنية، وكان الباب لا ينفتح!
ولكن كيف؟
الباب ليس له مزلاج، ولا يوجد قفل عليه، فكيف تم إغلاقه؟
وهكذا قام (أحمد) باستخدام الطريقة القديمة، قام بكسر الباب معتمدا على قوة اندفاعه بذراعه القوية، فانفتح الباب وقام (أحمد) بتسليط الكشاف على مدخل القبو، فوجد الدرجات التي تحدث عنها (التبيني) من قبل، وحدّثه قلبه أن ينصرف وأن يعود من حيث أتى وينسى تلك القصة برمتها، لكن عقله رفض تلك الفكرة وزاده عنادا على إكمال مشواره، فاستجمع (أحمد) شجاعته وبدأ يهبط درجات السلم..
(اللعنة على تلك الرائحة!)
هكذا قال (أحمد) في سره بعد أن شم تلك الرائحة الفظيعة، رائحة نتنة للغاية ذكّرته برائحة أقفاص الأسود التي كان يراها في حديقة الحيوان، تحامل (أحمد) على نفسه واستمر في طريقه في القبو المظلم..
كان كأي قبو رآه في الأفلام الأجنبية؛ يحتوي على مهملات المنزل من كراسي قديمة وصناديق من الكرتون مبعثرة هنا وهناك، أدار (أحمد) في القبو دائرة الضوء فشاهد على يساره ملاءة قديمة اتخذت شكلا مستطيلا على الحائط..
(تلك الملاءة تخفي شيئًا وراءها!)
اقترب (أحمد) من الملاءة وهو يشعر أن قدمه ترتطم بأشياء صلبة، أشياء مثل الأحجار والحصى، وعندما وقف أمام الملاءة شدها بكل قوته فإذا به يجد مجموعة من الرفوف مثل المكتبة التي رآها في غرفة المكتب التي دخل منها إلى السراي، وأخذ يركز بالكشاف على تلك الرفوف، فوجد عليها مجموعة من الزجاجات الضخمة ذكرته بزجاجات المياه الغازية البلاستيكية سعة (٢ لتر) وكان بها سائل أزرق، التقط (أحمد) إحدى الزجاجات، وركّز عليها ضوء الكشاف، كان هناك شيء ما يتحرك بداخل الزجاجة.. هذا سائل (الفورمالين) وهناك شيء ما محفوظ بداخله، أخذ (أحمد) يدقق النظر في السائل ويقرّب الكشاف أكثر فأكثر

من الزجاجة، حتى رآى آخيرًا الأشياء المحفوظة في (الفورمالين).. كانت أشياء طويلة ورفيعة مثل أصابع (الكفتة).. ولكنها ليست أصابع (كفتة)..
لقد رأي (أحمد) أصابع بشرية محفوظة في الفورمالين!
تراجع (أحمد) إلى الوراء من هول المفاجأة وارتعشت يده فوقعت الزجاجة وانكسرت، ثم أخذ ينظر في بقية الزجاجات، وظل على تلك الحال طيلة ساعة كاملة فحص فيها ما يقرب من خمسين زجاجة وضعت على رفوف ذلك المعمل البشع، كانت الزجاجات تحتوي على أعضاء بشرية محفوظة؛ أصابع، آذان، أنوف، أعضاء تناسلية ذكورية!
رفع (أحمد) غطاء رأسه وأخذ يلهث، وجلس على أحد المقاعد الخشبية الملقاة، وأخذ ينظر إلى تلك الرفوف التي تحوي زجاجات الموت، ويتخيل ما فعله هؤلاء المتوحشون مع جثث ضحاياهم، كانوا يأكلون لحومهم ويستقطعون أجزاء منهم يحفظونها للأوقات العصيبة التي يندر فيها الصيد، أو لا يستطيعون فيها الخروج..
كانت قدمه ترتطم كالعادة بشيء صلب، محدب، هذا ما شعر به (أحمد) وظل يعبث بحذائه بذلك الشيء، وظن أنه قطعة حجر كبيرة، ولكنها كانت تصدر صوت قرقعة كأنها شيء هشّ موشك على الكسر، أو كأنها قطعة من البطاطس (الشيبسي) التي يستمتع الأطفال بمضغها والاستماع لقرمشتها..
فسلّط الكشاف للمرة الأولى منذ أن دخل القبو إلى الأرض، فرأى ما كانت ترتطم به قدمه، فانتفض واقفًا وتصلب شعر رأسه من فرط الرعب، لقد كان يعبث بجمجمة بشرية!
وقام بتوجيه الكشاف إلى الأرض يمينًا ويسارًا، فوجد العديد من الهياكل العظمية والجماجم انتشرت على أرض القبو الترابية في فوضى مزرية..
هذا القبو ليس إلا مقبرة..
مقبرة لضحايا (أمجد شيخون) وأفعاله الشنيعة..
أخرج (أحمد) هاتفه المحمول وقام بتشغيل الكاميرا على وضع الفلاش، وأخذ يصوّر كل ما رآه في ذلك القبو المرعب، وعندما انتهى من التصوير أعاد غطاء رأسه إلى مكانه وانطلق مسرعًا إلى باب القبو، ومنه دلف إلى غرفة المكتب حيث النافذة المكسورة، وحيث سيخرج أخيرًا إلى الحياة الطبيعية ويترك تلك السراي الملعونة...
عندما دخل إلى غرفة المكتب وجد الرياح قد اشتدت وحرّكت الستائر العملاقة، وبعثرت الأوراق الموضوعة على المكتب العتيق فانتشرت في الأرض، كاد (أحمد) يقفز من النافذة عندما سمع بغتة صوتًا يأتي من خلفه، يشبه قرقرة النارجيلة يقول في غيظ:
ـ لماذا جئت إلى هنا؟ من يدخل لا يخرج أبدا!
فالتفت وراءه، فوجد عند المكتب شيئًا جالسًا لم يستطع تبين وجهه في الظلام، فأخرج الكشاف من جيبه بسرعة ووجهه ناحية المكتب، فوجد وراءه ذلك المخلوق البشع الذي رآه من قبل على الدكة الرخامية عند الكورنيش،

وكان يبتسم في وحشية وقد ظهرت أنيابه الحادة ووجهه المشعر، فوقع الكشاف من يد (أحمد) من فرط الرعب، وشعر أن ضربات قلبه تتزايد بصورة رهيبة وهو يرى ذلك الكائن وهو يتحرك من وراء المكتب، ويتجه ناحيته قائلا:
ـ كنت واثقًا أننا سنلتقي مرة أخرى!
فتراجع (أحمد) حتى أصبح نصف جسده خارج النافذة، ثم قفز مسرعا وجرى كأنه يهرب من الموت ذاته، وألقى نظرة خاطفة على النافذة التي قفز منها، فوجد ذلك الشيء واقفًا عندها وعيناه تلمعان بوهج غريب، ثم سمع صوته وهو يعوي كذئب جريح، فزاد من سرعته من دون أن ينظر إلى الوراء وإن كان شعر بوجود أقدام تعدو ناحيته، وتوقع أن عواء ذلك المخلوق كان بمثابة إنذار لبقية زملائه كي يعلمهم بوجود دخيل!
انطلق (أحمد) وقلبه يكاد يقفز من صدره، وهو يسمع خوار تلك المخلوقات وهي تقترب منه، حتى وصل إلى المكان الذي ترك فيه الخطاف والحبل، فتسلق السور مسرعًا وخرج أخيرًا إلى الشارع.

الفصل الثاني عشر

(وفيها [سنة ٣٣٤ هـ] اشتدَّ الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسنانير [القطط]. وأخذَ بعضهم ومعه صبي قد شواه ليأكله. وأكل الناس خرّوب الشوك فأكثروا منه، وكانوا يسلقون حبّه ويأكلونه، فلحِقَ الناس أمراض وأورام في أحشائهم)

(القاهرة) رمضان عام ٤٦١ هـ

فتح الخادم الحبشي الباب بعد أن انزعج رأسه من الطرق المتواصل عليه، فإذا به يجد رجلاً أعور العين اليمنى، يرتدي أسمالاً بالية ويتكئ على جذع شجرة كعصا بيده اليسرى، ويمد يده اليمني في تذلل قائلا بصوت واهن:

ـ أعطني مما أعطاك اللـه يا ولدي..

فأجابه الخادم في فتور:

ـ اللـه يعطيك يا والدي..

فألحّ السائل:

ـ أرجوك يا ولدي فأنا لم أذق لقيمة واحدة منذ عدة أيام!

فقال الخادم في نفاذ صبر:

ـ انتظر مكانك حتى أعود.. وإياك أن تتحرك..

وقام بمواربة الباب، فلم يعر السائل اهتماما لتحذيره وتسلل بخفة إلى داخل الدار..

كانت رائحة البخور بالداخل فائحة، جعلت رأس السائل يدور، وكان الجو بالداخل خانقًا وضبابيًا من أثر البخور، ووسط الضباب وجد مجموعة من الحرافيش يفترشون الأرض في حلقة واسعة، وبيد كل واحد منهم طبق صغير يأكل ما فيه بكل سرعة كأنه لم ير طعاما من قبل!

اتخذ السائل مكانه بين اثنين من هؤلاء الحرافيش، كانا ضخام الجثة وسواعدهم الممدودة في الأطباق قد شُمِّرت فأظهرت الشعر الكثيف الذي يغطيها، وألقى نظرة على الطعام الموجود في الأطباق، فوجد قطعًا صغيرة من الخبز إختلطت بها قطع من اللحم..

ولكن أي لحم هذا؟

لا توجد بهائم في حظيرة (عوف بن موسى)، فمن أين له بهذا اللحم؟

ولم يمر وقت طويل حتى جاء أحد الخدم ووضع في يد السائل طبقا مليئا بالخبز واللحم، فأخذ السائل قطعة من اللحم وأخذ يلوكها، ثم بصقها سريعا؛ إن طعمها لمريع ولم يسبق له في حياته أن تذوق لحما كهذا...

ثم توقف الجميع فجأة عن تناول الطعام، فقد دخل (عوف بن موسى)، يرتدي

السواد من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، وينظر للجميع بعينيه الواسعتين بنظرات شيطانية، وتعلو وجهه ابتسامة توحي بالثقة، ثم قال في هدوء وهو يتوسط الحلقة التي شكّلها الرعاع:
ـ إن قلبي بكم ليفرح، وسعادتي بتشريفكم لي لا توصف..
فخرج صوت من وسط ضباب البخور يقول في حماسة صادقة:
ـ عاش الأمير (عوف)..
فردد وراءه بقية الحرافيش:
ـ عاش الأمير (عوف)..
فأسكتهم الملعون بإشارة من يده ثم استطرد بنفس الهدوء:
ـ أنا لست أميرا يا إخواني، ولكني رجل بسيط رقّ قلبه لحالكم المسكينة التي تسببت عصابة (المستنصر) في وصولها إلى الانحدار.. فلتستكملوا طعامكم ومرحكم، فما زال الفجر بعيدا، ولا يزال أمامنا ليل طويل.. عودوا إلى طعامكم واملأوا بطونكم؛ فمن دون لحم (عوف بن موسى) لا توجد نجاة من الجوع، ومن دون (عوف بن موسى) لن تنجو (القاهرة)..
و كاد يولي مدبرا من حلقة الرعاع الذين بدأوا في العودة إلى طعامهم وعبثهم، حتى توقف بغتة، ثم أخذ يتشمم بأنفه ويدير عينيه بين الحاضرين، ككلب مروَّض يقتفي أثرًا!
ثم ثبت مكانه وقال في غضب:
ـ يوجد بينكم غريب!
فنظر الجميع إلى بعضهم البعض في ريبة، ثم عاد (عوف) فقال وهو يغمض عينيه:
ـ إني أشم رائحته.. رائحة خوفه البشري.. رائحة لحمه الممزوج بقطرات عرق الخوف!
فازدرد (أبو أيوب الفرداني) ريقه بصعوبة، وتمنى في سره لو كان استمع إلى كلام الشيخ (نور الدين) ولم يقدم على تلك المغامرة غير محسوبة العواقب...
كان (عوف بن موسى) يتشمم الحضور فردًا فردًا، حتى وصل إلى (أبي أيوب)، فاتسعت ابتسامته وسأله في هدوء:
ـ من أنت أيها الغريب؟ أنا لم أرك من قبل!
فقال (أبو أيوب) وهو يحاول الحفاظ على هدوءه:
ـ سائل على باب اللـه، جاءك يسألك طعاما وشرابا أيها التاجر الكريم..
فأغمض (عوف) عينيه وأخذ يتشممه ثم فتح عينيه وقال ساخرا:
ـ مرحبا بالوزير (أبي أيوب الفرداني)!
فارتعش (أبو أيوب) وتلعثم في الكلام ولم يفلح في الرد عليه، فنهض الرعاع جميعا ووقفوا وراء (عوف بن موسى) وأعينهم تنطق بالشر، كانوا جميعا ملتحين بطريقة غير طبيعية، شعثًا غبرًا، وكانت أعينهم تلمع ببريق غريب، كالذئاب الجائعة في الليل، فقال (عوف) وهو يثبت عينه في عين (أبي أيوب):
ـ لقد ارتكبت خطأ فظيعا يا صديقي، خطأ لا يُغتَفر.. لقد دخلت إلى هنا بقدميك

وبكامل إرادتك.. ومن يدخل إلى هنا لا يخرج!
فأزال (أبو أيوب) العصابة من على عينه ووقف محاولا الحفاظ على رباطة جأشه قائلا:
ـ تأدب في الحديث يا (عوف)؛ أنت تكلم (أبا أيوب الفرداني) وزير الخليفة (المستنصر) الذي لن يسكت إذا تعرّض لي أحد بسوء...
فقهقه (عوف) عاليا وقهقه أتباعه من ورائه، ما بث الرعب في قلب (أبي أيوب)، الذي وقف وحيدا في مواجهة هؤلاء الرعاع، ثم شعر فجأة بأيدٍ قوية تقوم بتكبيل يديه من الوراء، ثم كانت هناك ضربة قوية على مؤخرة رأسه جعلته يغيب عن الوعي..

* * *

عندما أفاق (أبو أيوب)، وجد نفسه مكبلا بالقيود من ساقيه وساعديه، وقد باعدوا بين ساقيه، وقاموا بمد ساعديه، فصار في وضعية (النجمة)..
كان مثبتًا على الأرض، وحوله كانت هناك شموع كثيرة، ثم شعر بأقدام تمس شعر رأسه، ثم رأى خمسة من الرجال يقتربون منه، لم يكونوا رجالا بالضبط، كان طولهم يفوق طول الرجال الطبيعيين، اخترقوا دائرة الشموع وبدأت وجوههم في الاتضاح، كانت وجوههم مشعرة وأنوفهم كبيرة وأنيابهم بارزة والزبد يسيل من أفواههم، وعند رؤسهم ظهر قرنان صغيران.. لقد كانوا غيلانا!
تجمدت الدماء في عروق (أبي أيوب) وهو يرى تلك الوحوش تقترب منه، ويقف كل فرد منهم عند طرف من أطرافه، في حين وقف الخامس بين ساقيه يبتسم في وحشية، ثم سمع صوت (عوف بن موسى) يهمس في أذنه، وهو يمسح على شعره كأنه كلبه الوفي:
ـ الآن ستعرف كل شيء يا (أبا أيوب).. للأسف لن تحيا كي تقص ما رأيته.. ولكن قبل أن تموت سأطلعك على سري الصغير يا صديقي.. أنا (عوف بن موسى) ساحر يهودي.. أتنقل من مكان إلى مكان، ومن بلدة إلى بلدة، أبحث عن لقمة عيشي، لكنها ليست كأي لقمة.. لقد وجدت في كتب السحر و(الكابالا) المقدسة، أن سر القوة والخلود والعظمة يتمحور في شيئين، شرب الدماء.. وتناول لحم البشر..
فصرخ (أبو أيوب) صرخة مدويّة، فعاد (عوف) يقول مستطردا:
ـ لقد كان الموضوع أسهل ما يكون عندكم هنا في (القاهرة) وبوجود (المستنصر) الغبي، الذي يرفض أن يساعده أحد، كوّنت جيشًا ليس بالصغير.. من الغيلان.. والمجموعة التي أمامك ما هي إلا عينة من ذلك الجيش..
فقال (أبو أيوب) لاهثا:
ـ لكنك لن تنجح في جعل أهل القاهرة بأسرهم يأكلون لحم البشر..
ـ ومن قال إني أريدهم جميعًا من الغيلان؟ أنا فقط أريد الأقوياء، كي يصبحوا غيلانًا.. القوي فقط هو من يستحق أن يأكل، والضعيف هو من يؤكل.. هذا قانون البشرية منذ بدء الخليقة يا عزيزي!
فصرخ (أبو أيوب) وهو يحاول التخلص من أغلاله الحديدية:

ـ أنت تتحدث عن قانون الغاب أيها المجنون.. آخرجني من هنا!
فربت (عوف) على كتفه ورفع رأسه قائلا:
ـ فات الأوان يا صديقي، الليلة أنت سحور رجالي الأوفياء.. من الخسارة أن الأم المقدسة ليست معنا لتحضر بنفسها مراسم التهامك!
ثم خرج من وسط حلقة الشموع وأمسك بكتاب على غلافه رسم لنجمة خماسية حولها مجموعة من صور الحيوانات على هيئة دائرة، ثم أخذ يتلو الصلوات المبهمة في خشوع بلغته الغريبة، وعندما أغلق الكتاب رفع صوته صارخا:
ـ يام.. يام!
وكانت تلك هي آخر كلمة سمعها (أبو أيوب الفرداني) في حياته قبل أن يلتهمه الغيلان الخمسة!

* * *

قبيل صلاة الفجر دخل (راضي الإسكافي) إلى داره، فوجد القناديل وقد انطفأت وأبناءه وزوجته يغطون في نوم عميق، وحدثه قلبه بأن يقوم بإيقاظهم لتناول طعام السحور، لكنه تذكر أن الدار خالية من الزاد، وأنه الوحيد الذي تسحّر في هذه الدار على جسد وزير الخليفة، لقد صار (راضي) وأصدقاؤه الأربعة أقرب الناس إلى (عوف) وعند كل فريسة تقع تحت يدي الساحر اليهودي يكون الأصدقاء الخمسة على أطراف الضحية، وينشدون معه ترانيمه الغريبة ويكونون أول من يتذوق لحم الفريسة الطازج، في حين يكتفي (عوف) بعد أن ينهش بقية الرجال جسد الضحية، بجمع دمائها وتلطيخ فطائره بها.. وتناولها!
جلس (راضي) على الأرض وحيدًا في الظلام يرنو في إشفاق إلى أبنائه الصغار، وهم يتقلبون في فراشهم مثل القطط الصغيرة التي كان يلهو معها عندما كان في مثل عمرهم، لقد علم هو وأصدقاؤه حقيقة (عوف) منذ فترة ليست ببعيدة، وأصابهم الذهول عندما عرفوا أنهم مجرد مساعدين لساحر يهودي يمارس طقوسًا وثنية بشعة بعيدة كل البعد عن أي تعاليم دينية، وكان (عوف) يشعر بالسعادة وهو يراهم يصطادون فرائسهم من البشر ويحملونها إليه، وكانوا في البداية يشعرون بالامتعاض من هذه الفعلة الشنيعة، ولكن عندما بدأت القوة تسري في أجسادهم، والشبع يملأ بطونهم، صار اصطياد البشر وتناول لحمهم من أقرب الأشياء إلى قلوبهم، حتى وإن لاحظوا على أنفسهم ابتعادهم عن الصلاة، وكثرة النوم نهارًا، والشعر الكثيف الذي غزا أجسادهم، إنه يشعر بتحوّل غريب يجري عليه وعلى أصدقائه، ولا يستطيع إيقافه..
إما أكل البشر، وإما الموت جوعا!
اختيار صعب لكنه اختاره، وكذلك فعل أصدقاؤه ورضوا بأن يكونوا غيلانا حاصلين على بركة الأم المقدسة التي قابلوها مرارا وتكرارًا ولم يروا وجهها قط، وكانت دائما ما تأتي على فترات متقطعة فيحتفي بها (عوف بن موسى) ويجعلها تشهد طقوس الذبح والتناول كي تبارك عملهم المشؤوم!
وسأل نفسه في حسرة:

ـ كيف سيعيش أطفالي في هذا الزمن العصيب؟
من أين لهم بالطعام كي يكبروا ويصبحوا فتية وفتيات تقر بهم عيناه؟
هل سيصبحون وحوشًا مثله؟
سرت في جسد (راضي) رجفة من الرعب وهو يتخيل ذلك المصير البعيد الذي ينتظر أبناءه، ورفض أن يعيشوا حياة الوحوش التي يعيشها الآن.. وحسم أمره!
انتظر حتى سمع آذان (الفجر)...
وبعد آذان (الفجر)... انتهى كل شيء!

* * *

قال (عوف بن موسى) وهو يجلس القرفصاء وحوله الأصدقاء الخمسة:
ـ إياكم وسماع صوت الأذان!
فسأله (سعدة الفران):
ـ ولم يا أيها الأمير؟
فنظر إليه (عوف) غاضبًا وقال محذرا للمرة الثانية:
ـ إياكم وسماع صوت الأذان.. الأذان يكشف المستور.. الأذان يجعلكم في صورة غير الصورة وهيئة غير الهيئة.. الأذان يفضح أمرنا!
فصمت الرجال الخمسة ولم ينبسوا ببنت شفة وقد فهموا ما يصبوا إليه (عوف بن موسى)..
فعاد (عوف بن موسى) يقول في خشوع:
ـ القوة التي تسري في أبدانكم وفي سواعدكم وفي أسنانكم، لم تكونوا لتحلموا بها؛ فحافظوا عليها وتذكروا يا أصدقائي أن الجوع طوفان أسود قاتم اللون وإذا جاء الطوفان...
وصمت (عوف) قاطعًا كلماته، فاستطرد (شاهين العزازي) ساخرا:
ـ يضع كل فرد ولده بين فخذيه كي ينجو به.. أليس كذلك؟
فاتسعت عينا (عوف) وهو يهمس بصوت شيطاني:
ـ لا يا أصدقائي، ولكن إذا جاء الطوفان فلينج كل شخص بنفسه... بنفسه وحسب!

الفصل الثالث عشر

«[شهر شوال سنة اثنتين وعشرين وثمانمئة] قدم الخبر أن الغلاء اشتد بمكة، فـعُـدمت بها الأقوات، وأُكِـلَـتْ القطط والكلاب حتى نفدت، فأكلَ بعض الناس الآدميين، وكثُر الخوف منهم، حتى امتنع الكثير من البروز إلى ظاهر مكة خشية أن يُـؤكلوا».
المقريزي

(القاهرة) مارس ٢٠١٢م
هذه المرة كاد الخجل يقتل (أحمد الجمال) قتلا، وشقيقه يلتقطه من على الدكة الرخامية المقابلة للبناية التي يقطن بها، لكنه هذه المرة يرتدي زي (النينجا) الغريب، وزاد من خجله عندما عرف شقيقه أن الشاب المسؤول عن الكشك الخشبي قام بمحاسبة السيارة الأجرة التي أتى فيها شقيقه الضابط السابق، فقام بأعطائه المال مضاعفًا متغاضيا عن نظرة الحزن المصطنعة التي ظهرت في عيني الشاب وهو ينظر إلى (أحمد) قائلا في أسف:
ـ ربنا يشفي يا سعادة البك!
هذه المرة كان (فهمي) هو المبادر بالهجوم بعد دخول الشقة، فصرخ في شقيقه قائلا:
ـ هذه المرة تخطيت كل الحدود.. هل بإمكانك أن تفهمني ما هذا الزي الغريب الذي ترتديه؟ وأين كنت؟ وماذا كنت تفعل؟
فتجاهله (أحمد) ودخل إلى غرفته وقام بخلع الزي الغريب الذي يرتديه، وشرع في ارتداء منامته، عندما سمع صوت أخيه يقول في غضب:
ـ هذه المرة لن أتركك قبل أن أفهم كل شيء!
فالتفت (أحمد) إلى الوراء فوجد شقيقه يقف على باب الغرفة ناظرا إليه في غضب، فآثر (أحمد) مهادنته وقال بصوت تصنع فيه الانكسار وهو يجلس على حافة الفراش:
ـ شقيقك يمر بفترة صعبة، وأنت الآن تزيد من صعوبتها بحديثك القاسي..
فصار شقيقه أكثر لينا وهو يقترب منه ببطء ويقول في هدوء:
ـ لقد أخبرتك من قبل أن تبوح لي بما في صدرك.. فأبيت..
ـ لن أستطيع أن أخبرك الآن..
فعاد الغضب إلى (فهمي) وهو يقول له محذرا:
ـ إذن افعل ما شئت يا أخي العزيز.. ولكن حاول ألا تعود المرة المقبلة بفضيحة لا أستطيع إخفاءها، وإلا فسوف يكون لي معك تصرف آخر..
وغاب لدقيقة ثم عاد مرة أخرى قائلا:

ـ واعلم آن خطيبتي قادمة في الغد وسوف نتناول الغداء نحن الثلاثة ـ آنا وهي وأنت ـ في مطعم برج القاهرة، فحاول ألا تفضحني أمامها...

* * *

إن المجاملات واللقاءات الاجتماعية هي أكثر الأشياء التي تثير غضب وحنق (أحمد الجمال)؛ فهو لم ينشأ لتلك المجاملات الاجتماعية، وحتى في صغره لم يكن يحب الذهاب للأقارب في الأعياد، وكان يفضل البقاء في المنزل أو الذهاب إلى النادي لمتابعة تدريباته..

كان جالسا في مطعم (برج القاهرة) ينتظر شقيقه وخطيبته؛ فقد أخبره شقيقه في الصباح قبل النزول إلى المستشفى أن يذهب قبلهم إلى المطعم، لأنه أخبر خطيبته أن شقيقه هو من قام بعزومتهم.

وقبل أن تشير الساعة إلى الرابعة عصرا بدقائق، وجد شقيقه يدخل إلى المطعم مرتديا بذلة كحلية لامعة والسعادة تقفز من عينيه، ويمسك في يده اليمنى بفتاة جميلة شقراء الشعر المنسدل إلى كتفيها، قمحية اللون رقيقة الملامح، هذا إذا ما تغاضينا عن شفتيها الغليظتين، كانت ترتدي ملابس ضيقة تظهر مفاتنها التي أدارت معظم الرؤوس الذكرية الموجودة بالمطعم.. (بلوزة) بيضاء وبنطلون (جينز) أزرق اللون كان ضيقًا عليها فاضحًا تضاريس جسدها المستديرة، وكانت (البلوزة) قصيرة الأكمام أظهرت ذراعيها البضتين.. وفوق عينيها استقرت نظارة سوداء كبيرة شبيهة بتلك التي كان يرتديها اللواء (رشدي تعلب)!

مصادفة غريبة لكنها ممكنة وغير مستحيلة!

قام (أحمد) بمصافحتها بابتسامة مجاملة وسارت الجلسة على ما يرام، طلب (أحمد) نصف دجاجة مشوية وسلطة خضراء وأرزا برياني، في حين طلب شقيقه نفس ما طلبته خطيبته، لحما مشويًا وسلطة طحينة..

(هل كنت تعمل في الشرطة؟)

هكذا فتحت الشقراء ذات الشفاه الغليظة الحديث، وهي تغمس قطعة من اللحم المشوي في الطحينة..

فأجابها (أحمد) في غير اكتراث:

ـ كنت..

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أمر الله!

وشعر(أحمد) بقدم شقيقه تضربه في ساقه ضربة خفيفة، يحاول أن ينبهه بتحسين أسلوبه في الحديث مع خطيبته، ثم قال (فهمي) بابتسامة واسعة:

ـ إن أخي لا يحب الحديث عن ذكريات خدمته بالداخلية..

ثم استطرد قائلاً في سخرية:

ـ وعلينا أيضا أن نحتفل اليوم بقبول الآنسة (جيلان العتريس) دعوة الغداء للمرة الأولى منذ خطوبتنا؛ فهي تعشق الخروج في الليل فحسب، ودائمًا ما كانت ترفض دعوتي لتناول الغداء..

فاحمر وجهها في خجل ثم قالت:
ـ فقط كي أتشرف بلقاء أخيك..
(جيلان العتريس)؟؟
الاسم يبدو مألوفًا!
ثم عادت تسأل (فهمي):
ـ لكنك لم تخبرني، لماذا لا يحبذ شقيقك الحديث عن سنين خدمته في الداخلية؟
فأجابها:
ـ لقد كانت ذكريات مؤلمة شهد فيها استشهاد عدد من زملائه ورؤسائه..
فوجدها (أحمد) فرصة مواتية لغلق الباب في هذا الموضوع فقال مصطنعا الأسى:
ـ نعم يا عزيزتي، لقد رأيت بأم عيني مقتل أصدقائي وأحبائي وأقرب الناس إلى قلبي..
فقال (فهمي) وهو يقطع من اللحم المشوي بالسكين:
ـ إن مهنة الشرطة هي بالفعل مهنة المشاق والبحث عن المتاعب يا (جيلان).. عندك مثلا اللواء (رشدي تعلب) الذي جاءنا جثة هامدة، هل تذكرين كيف كان شكله عندما أتوا به إلى المستشفى؟
فألقت قطعة اللحم التي في شوكتها في تقزز وقالت في توسل به غنج:
ـ أرجوك يا (فهمي) لا تذكرني بذلك اليوم.. لقد كان مشهدا مريعا.. لم أزرك في المستشفى منذ ذلك اليوم يا (فهمي)، ولا أعتقد أني سأفعل حتى مماتي!
ثم التفتت إلى (أحمد) الذي كان يجلس فاغرا فاه شارد الذهن وسألته:
ـ ماذا بك يا أستاذ (أحمد)؟
فلم يجبها ثم التفت إلى أخيه وسأله في صرامة:
ـ هل مات اللواء (رشدي تعلب)؟
فأجابه شقيقه وقد احمرّ وجهه:
ـ نعم..
ـ متى؟
ـ منذ نحو شهرين تقريبا..
فقام (أحمد) من مكانه وصرخ فيه:
ـ أنت كاذب!
فالتفت جميع الجلوس إلى (أحمد) الذي بدا الجنون واضحا عليه وهو يصرخ في أخيه، الذي قام محاولا تهدئته، بعد أن أصبحت خطيبته تنظر في رعب إلى شقيقه..
قال (فهمي):
ـ أرجوك اهدأ واجلس..
فسأله (أحمد) والشرر يتطاير من عينيه:
ـ كيف مات؟ ولماذا رأيت جثته وأنت طبيب مخ وأعصاب؟

فهمس له (فهمي):
ـ هل ستجلس إذا قمت بإخبارك؟
ـ إذا أخبرتني فسوف أنصرف ولن تراني مرة أخرى..
فنظر إليه (فهمي) مشدوها ثم قال له في تسليم:
ـ تم ذبحه وتصفية دمائه، ووجدنا أجزاء من جسده مبتورة وعليها آثار أظفار، يبدو أن من ذبحوه ألقوا بجثته إلى أحد الحيوانات المتوحشة التي التهمت من جثته! ومنزله في (جاردن سيتي) قريب من المستشفى الذي أعمل به، ولم يجد أبناؤه مفرا من نقله إليه لعلنا ننقذ ما يمكن إنقاذه ولكننا لم نفلح، وبسبب الحظ العاثر كان ذلك اليوم هو يوم مناوبتي الليلية بالمستشفى، وأنا قمت بنفسي باستقبال الجثة!
فابتسم (أحمد) في عصبية ثم قال لخطيبة أخيه:
ـ آسف يا آنسة (جيلان)، ولكن عليّ أن أنصرف الآن.. وأتمنى لكم أوقاتا طيبة..
وحاول (فهمي) أن يمسك يده كي يبقى، لكن (أحمد) أزاح يده بعيدًا، وخرج من المطعم وهو لا يكاد يرى أمامه!

* * *

(أنا اللواء رشدي يا أحمد.. ابق مكانك ولا تنظر إليّ وأنت تكلمني...)
(لا تحاول العثور عليّ؛ فأنا سوف أجدك عندما أريد ذلك!)

* * *

دخل (أحمد) إلى منزل أبيه القديم للمرة الأولى منذ أكثر من عامين، كان قد اعتاد الاستقلال بنفسه في شقق القانون الجديد، ولم يجرؤ على العودة إلى دار أخيه بعد ما حدث منه في (برج القاهرة).. لقد ذهب بنفسه إلى جهاز الأمن الوطني وتأكد مما قاله أخوه...
إذا كان اللواء (رشدي) قد قُتِلَ.. فمن الرجل الذي التقاه في (الإسكندرية)؟
ولماذا كان يدعوه لفتح التحقيق في قضية (التبيني)؟
كان رأسه على وشك الانفجار، وتوقف مخه تماما عن التفكير، فنهض من على الأريكة التي كان جالسا عليها وتوجه إلى غرفة نوم أبويه، فوجدها كما تركها تماما منذ عامين، الدولاب الأبيض الكبير وبجواره المرآة البيضاوية، والفراش المربع الذي تعلوه صورة عريضة لطاووسين متقابلين بألوانهما الزاهية.. فألقى بجسده على الفراش وغط في نوم عميق..

* * *

في الوقت الذي كان فيه (أحمد) يغط في نومه، كان (فهمي) مع (جيلان) لا يزال يحاول أن يشرح لها كيف تأثرت حالة شقيقه النفسية بعد تقاعده عن الخدمة، وكيف أنه طيب القلب لكنه تفاجأ بموت رئيسه السابق، وكانت (جيلان) تكتفي بالصمت ولا ترد عليه فيزداد جنون (فهمي)، وفي النهاية اكتفى بالصمت وهو يقود سيارته في الطريق المؤدي لمنزلها... وأمام سراي والدها أوقف سيارته وهبط وفتح لها باب السيارة، فترجلت منها وسألته في دلال:
ـ ألن تدخل معي؟

فأجابها غاضبا:
ـ لا..
فعبثت بأصابعها في عروة صدره قائلة:
ـ إذا كنت غاضبا مني فأرجوك أن تغفر لي.. وعليك أن تلتمس لي العذر.. إن أخاك إنسان غير طبيعي..
فنظر إليها في غضب وقال:
ـ إن أخي يمر فحسب بفترة عصيبة في حياته، وإذا لم أتحمله فمن سيتحمله؟
فنظرت له في عينيه باسمة وقالت له:
ـ سامحني يا (فهمي)، وأعدك أني لن أخوض مرة أخرى في هذا الموضوع..
ثم استطردت في غضب مصطنع:
ـ وأين أيها الطبيب شرفك المهني؟ أنت لم تزر أخي منذ خطبتني..
فخبط جبهته بيده وقال لها:
ـ سامحيني يا عزيزتي، سوف أدخل معكِ حالا كي أطمئن عليه
وتأبطت ذراعه ودخلا معا السراي...
سراي (منصور العتريس)!
إن (فهمي) يشكر الأقدار التي ساقت له حالة (وجدي منصور العتريس).. شقيق (جيلان)..
إن (فهمي) طبيب مخ وأعصاب وجاءته تلك الحالة في أحد الأيام.. شاب في مقتبل العمر يعاني من مرض غريب يجعله في حالة تشبه الشلل الرعاش؛ أطرافه ترتعش بل وتتحرك بحركات مضحكة تشبه فرقعة الأصابع، إضافة إلى الأرق المزمن، ونوبات صرع شديدة..
إن عائلة (منصور العتريس) الثرية قد رفضت أن يبقى ولدها بالمستشفى، وفضّلت أن يتم علاجه بالمنزل، وفي سرية تامة..
ووقع الاختيار على (فهمي الجمال) لما لمسوه فيه من أخلاق عالية، وذكاء متقد، جعله ينجح في تهدئة حالة ولدهم، وإن كان لم ينجح في شفائه!
وهكذا تم اللقاء بفتاة أحلامه.. (جيلان العتريس).. خريجة كلية الآداب قسم اللغات الشرقية.. جميلة وجريئة وثرية، حاول التقرب منها والتودد إليها فوجد منها استجابة سريعة، وخرجا معا أكثر من مرة، وهكذا استجمع شجاعته وطلب يدها، وفوجئ بموافقة والدها ومباركة عائلتها!
إنها فرصة لا يريد (فهمي) أن يضيعها، إن والده ـ لواء الشرطة السابق ـ لم يترك له ولأخيه سوى مئة ألف جنيه؛ فقد صرف القسط الأكبر من مكافأته على علاج زوجته التي أصيبت في أواخر أيامها بداء السرطان.. افتتح (فهمي) بنصيبه العيادة المتوسطة الحال.. واعتمد على نفسه في الادخار من أجل الزواج، لكن زيجة كهذه كفيلة بإراحته طيلة عمره.. ثم جاء شقيقه الذي لا يأتي من ورائه سوى الفشل والخزي كي يضيع عليه تلك الفرصة!
كان تلك الأفكار تدور في رأس (فهمي) وهو يجري الكشف على (وجدي) الذي صار لحمًا فوق عظم، وكانت أصابعه لا تزال تلعب كأنه يقرع بالصاجات، وكان

بجوار (فهمي)، المستشار (منصور العتريس) الذي سأله في يأس:
ـ هل هناك من أمل يا دكتور؟
فأعاد (فهمي) السماعة إلى حقيبته، وقال في حرج:
ـ الأمل في اللـه موجود..
ـ ونِعمَ باللـه..
ـ لقد أرسلت تقريرا مفصلا عن الحالة إلى أستاذي المقيم في (إنجلترا) الدكتور (شكري حمدان) وأنا في انتظار الرد منه..
فسالت الدموع من عيني العجوز وهو يرفع رأسه إلى السماء قائلا:
ـ ليت اللـه يريحه من هذا العذاب!
فقال له (فهمي) مسرعا:
ـ استغفر اللـه يا سيادة المستشار، ما من داء إلا وله دواء.. وإن شاء اللـه سوف يبرأ (وجدي) ويعود أفضل مما كان..
ثم سأله المستشار:
ـ هل تناولت غداءك يا عزيزي..
فأجابه (فهمي) في حرج:
ـ نعم، تناولته مع (جيلان) وشقيقي في مطعم البرج..
فقال له المستشار وهو يقتاده إلى خارج الغرفة:
ـ إذن فلتبق معنا حتى العشاء..
ورغم محاولات (فهمي) للتملص منه لم يفلح، وعند السابعة مساءً كان (فهمي) جالسًا على مائدة الطعام مع (منصور العتريس) وحرمه وابنته (جيلان)..
إن (منصور العتريس) رجل ضخم الجثة، أصلع الرأس ويملك حاجبين كثيفين أشيبين يضفيان على وجهه واضح الملامح قسطا من الرعب، على العكس من زوجته؛ النحيلة صاحبة الوجه الدقيق والعينين الغائرتين، حتى إن من يراها يتأكد أنها من المصابين بسوء التغذية!
كان الطعام لذيذًا بحق؛ لحم مشوي طيب المذاق، وشطائر سمبوسك محشو باللحم المفروم، وصينية كبيرة بها الثريد مزدانًا بمكعبات اللحم المحمر.
شبع (فهمي) حتى إنه أقسم بينه وبين نفسه إنه لن يأكل لحمًا طوال الأسبوع المقبل، بعد تلك الوجبة الدسمة من اللحوم..
إن هذه العائلة تعشق اللحم بطريقة غريبة، إنه لا يذكر مرة قاموا فيها بدعوته إلى الطعام ولم يضعوا كميات كبيرة من اللحوم بكل أصنافها؛ الضأن والبتلو، الكندوز ولحم الجمال، المشوي والمسلوق والمحمر!
من المؤكد أنه الغرور!
عائلة ثرية تملك أموالاً تعد فلا تحصى، فلماذا لا يتباهون بتناول اللحم بتلك الكميات؟
وفي نهاية اليوم اصطحبه المستشار السابق إلى الخارج وودعه هو وخطيبته، بعد أن أصرا على أن يتناول معهما الغداء يوم الجمعة المقبل، فقبل (فهمي) الدعوة شاكرًا، ثم أدار محرك سيارته عائدا إلى منزله، وقد عزم على إرسال

بريد إلكتروني يستعجل فيه رأي أستاذه...

الفصل الرابع عشر

«ثم وقع الغلاء في الدولة الأيوبية، وسلطنة العادل أبي بكر بن أيوب، في سنة ست وتسعين وخمسمئة. وكان سببه توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة (...) فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع. ودخل فصل الربيع، فهب هواء، أعقبه وباء وفناء. وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع. فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا»

(القاهرة) جمادي الآخرة عام ٤٦٣ هـ

(يا عباد اللـه.. يا جموع المسلمين.. خليفتنا المستنصر باللـه يدعوكم بعد صلاة العشاء لصلاة الاستسقاء.. لعل اللـه ـ عز وجل ـ يمن علينا بهبوط الغيث، والنجاة من الهلاك.. فلا تتخلفوا عن الميعاد.. أنجانا اللـه وأنجى البلاد)

هكذا سار المنادي بطبلته الشهيرة ينادي في (القاهرة) يدعو الناس لصلاة الاستسقاء..

ولكن أي ناس يدعو؟

لقد هرب الأغنياء والأعيان إلى مدينة (القطائع) وضربوا حولها سورا عظيما وضعوا حوله الجند التركي الشرس، وبقي في (القاهرة) الفقراء، الذين انقسموا إلى فريقين، فريق من الغيلان ينامون طوال النهار ويستيقظون ليلا، فينبشون القبور ويغتالون الضعفاء من الفريق الثاني ويلتهمونهم أحياء!

لم يصبح في شوارع (القاهرة) أي كلب أو قطة أو حتى حشرة.. لقد أصيب الناس بالسعار، وعرضت النساء أنفسهن في الأسواق.. الليلة مقابل رغيف خبز!

لقد اختفى (أبو أيوب)، ولم يُعثَر له على أثر، وتولى الوزارة من بعده (محمود المواردي) الذي تم عزله بعد أسبوع بالتمام!

أما الشيخ (نور الدين القليوبي) فقد ذهب عقله وأصابه مس الجنون، بعد أن قام زوج ابنته بالتهامها والتهام أبنائه وهرب بعدها!

ثم توالى الرجال على كرسي الوزارة، وكان الخليفة يقوم بتغيير الوزراء كأنه يغير ملابسه، بإيعاز من والدته التي صارت الحاكمة الفعلية لمصر، وكان أي وزير يتولى ذلك المنصب الحساس يرفض أن يأخذ الأوامر من امرأة.. حتى لو كانت صاحبة الحجاب الرفيع، فيعزل نفسه بنفسه!

سادت الفوضى ولم ير الناس أي أمل، وترامت الأنباء بأن الشدة قد وصلت إلى القصر الفاطمي، وأن الخليفة (المستنصر) يقوم ببيع محتويات قصره، فزادت

حالات الهجرة من (القاهرة)..
وبقي (عوف بن موسى) يسيطر على الفقراء بسحره الأسود وكتابه المشؤوم، وينشر الغيلان في الليل كي تزيد من ذعر الناس!
وقف الخليفة (المستنصر) ينظر من شرفة قصره الذي صار خاويا من الذهب والتحف والرخاميات، ينظر بأسى إلى (القاهرة)، فربتت والدته على كتفه وقالت له في حنان:
ـ هوّن عليك يا ولدي.. فرج الله قريب..
فارتمى في حضنها وهو يبكي قائلاً:
ـ أين الفرج يا أمي؟ لقد بعت كل ما يمكن بيعه.. السلب والنهب ينتشر، وجيوشنا تنهزم في كل مكان.. أنا جائع يا أمي.. جائع مثل أي فقير!
فرفعت أمه رأسه من حضنها ولطمته على وجهه قائلة:
ـ إياك أن تبكي.. أنت خليفة المسلمين.. حامل رسالة الإمام!
ـ وماذا أفعل يا أماه؟
فجلست أمه على العرش غير عابئة بولدها الضعيف وقالت في حزم:
ـ افعل كما يفعل جميع الرجال الأقوياء..
فسألها في غباء:
ـ ماذا أفعل يا أمي؟ أنا لا أفهم..
ـ تأكل ما يأكله الأقوياء.. إنهم يلتهمون الضعفاء، ونحن لا حاجة لنا فيهم!
فتراجع (المستنصر) إلى الوراء وهو ينظر لها ذاهلا، ثم قال:
ـ تريدينني أن أكون كالرعاع الذين يلتهم بعضهم بعضا!
ـ أريدك أن تكون كالرجال..
ـ ليتني مت قبل أن أسمع منك هذا الكلام!
ـ إذا لم تسمع كلامي فسوف تموت أيضا.. توجّه إلى دار (عوف بن موسى) واطلب منه أن يطعمك..
ثم استطردت ساخرة:
ـ أم تريد أن تعرض زوجاتك الأربع في السوق مقابل أربعة أرغفة؟ سوف يتهافت الأعيان على قضاء ليلة في أحضان زوجة الخليفة.. أليس كذلك؟
فاحمر وجهه من الغضب وتوجه إليها قائلا في غضب:
ـ اخرسي!
فابتسمت ساخرة وهي تنهض قائلة:
ـ إذن فكّر في حديثي جيدا، قبل أن يفوت الأوان!
وخرجت من قاعة العرش تاركة (المستنصر) غارقا في الحيرة والغيظ..
وأسفل نافذة القصر رأى متسولا طاعنا في السن رث الثياب ثائر الشعر الأشيب، وينادي بصوت عال:
ـ يا عباد الله أكلتم القطط والكلاب، وصرتم أقذر من الذباب!
ودقق الخليفة في هيئة ذلك المتسول فتعرف عليه.. إنه الشيخ (نور الدين القليوبي)!

* * *

وقف الوزير (سليمان الأنصاري) بقامته المهيبة ووجهه المكفهر العابس بجوار الخليفة، وهو يطرق باب (عوف بن موسى) وعندما فتح له الخادم وسأله عن شخصه، صرخ فيه الوزير وقال له أن يبلغ سيده أن الخليفة ووزيره يبغيان مقابلته، فأفسح لهما الخادم الطريق، فدلفا إلى الداخل، حيث الرائحة النتنة المختلطة برائحة البخور العنبري وحلقة الرعاع الذين يتناولون اللحم في نهم، نظر أحدهم إلى الخليفة الذي كان يرتدي عمامة مطرزة بخيوط فضية وعباءة زرقاء من الحرير، ثم قال وبقايا اللحم تتساقط من فمه في سخرية:

ـ (المستنصر) جاء كي يأكل معنا يا إخوان!

فقال واحد آخر في سخرية:

ـ ألم يكفه مص دمائنا والآن يأتي كي يأكل اللحم؟!

ـ ومن هذا الذي بصحبته؟

ـ لعله قصاب استأجره كي يقوم بتشفية اللحم له..

فغضب (سليمان الأنصاري) وقبض على مقبض سيفه، فأمسك (المستنصر) بيده ورده عن فعله، ثم جاء (عوف بن موسى) يتبختر في مشيته، وبمجرد أن رآهما قال في صوت جهوري:

ـ مرحبا بخليفة المسلمين وإمام الشيعة المنصورين.. ووزيره صاحب المهابة والجلالة وقائد جيوشنا الجرارة...

فقال له الخليفة في هدوء:

ـ مرحبا بك يا (عوف)..

ـ ترى ما سبب تشريف الخليفة المستنصر ووزيره الأنصاري لداري المتواضعة؟

ـ أريد أن أختلي بك يا (عوف)

فابتسم (عوف) وقال له:

ـ لك ما شئت يا خليفة المسلمين..

وتركا (سليمان الأنصاري) واقفًا وسط الرعاع النهمين، ودخلا غرفة جانبية..

داخل الغرفة وجد (المستنصر) رأس ماعز محنطا وموضوعا على الحائط، ومجموعة من البرطمانات الزجاجية موضوعة على الرفوف بها أشياء صغيرة، لم يستطع (المستنصر) تبينها..

ثم دعاه (عوف) للجلوس، وقال له (المستنصر) في هدوء:

ـ أصبحنا وحدنا الآن يا (عوف)..

ـ أنا رهن إشارتك يا مولاي..

ـ ماذا تريد يا (عوف)؟

فسأله في استغراب:

ـ ماذا تقصد يا مولاي؟

ـ أنت لست تاجرا يا (عوف) أليس كذلك؟

فابتسم في مكر قائلا:

ـ أنا أفضل تاجر يا سيدي..

فقال (المستنصر) غاضبا:
ـ تاجر بشر.. تطعم ضيوفك من لحم البشر وتحوّلهم إلى غيلان.. لقد كنت مخطئًا عندما ضربت عرض الحائط بحديث الشيخ (نور الدين القليوبي) عندما حذرني منك ومن ألاعيبك..
ـ سامحك اللـه وسامحه!
ـ اليوم أجيء إلى هنا وأمد يدي إليك.. هذا أسوأ يوم في حياتي.
فهز (عوف) كتفيه في استهانة وسأله:
ـ وما الذي دفعك للمجيء..
فوضع الخليفة عينيه في الأرض وقال بصوت خافت:
ـ الجوع..
ـ الجوع؟ وهل يجوع خليفة المسلمين؟
ـ نعم أيها الإبليس، داري خلت من الطعام والأموال، ولكن قبل أن تطعمني أريد أن أسألك شيئا؟
ـ تفضل..
ـ من أنت؟ ولماذا فعلت كل ذلك؟
فقام (عوف) من مكانه وقال بابتسامة ذات مغزى:
ـ سوف تعرف الآن يا مولاي..
وخرج الاثنان، فأمر (عوف) الخدم بإطفاء القناديل، فساد الظلام، ثم أتى الخدم بالشموع، وقال (عوف) بلهجة آمرة:
ـ اتبعوني..
فتبعه الجميع إلى إحدى غرف الدار، فقام (عوف) بإزالة البساط عن الأرض، فانكشف عن باب سري، رفع (عوف) الباب وهبط درجات، فهبط وراءه الرعاع ومن بعدهم الخليفة ووزيره، كان سردابا مظلما، أنارته بعد ذلك الشموع التي أحضرها الخدم، وداخل هذا السرداب وجد الخليفة جماجم بشرية وهياكل عظمية تحللت أجزاؤها، ورسما كبيرا على الحائط لجسد بشري له رأس ماعز، وقد جلس القرفصاء مشيرًا بسبابته اليمنى إلى أعلى ويبتسم في شيطانية...
كان الرعاع ساعتها قد وصلوا إلى حالة من الهرج لا توصف، وبدأ (سليمان) يشعر بالخوف، خاصة و(عوف) يقوم برسم نجمة خماسية على الأرض أسفل صورة الرجل ذي رأس الماعز، ووضع الشموع حول هذه النجمة ثم صرخ في الخدم:
ـ أحضروا الضحية..
فأنزل الخدم بمعاونة الرعاع امرأة شابة كمم فمها وتنظر في رعب إلى ما هي فيه، ثم تم وضعها على الأرض مكبلة في وضعية النجمة، ثم بدأت الطقوس التي حدثت في (أبي أيوب) من قبل...
كان الخمسة الواقفون عند الأطراف هم (جليل) و(راضي) و(سعدة) و(شاهين) و(عبد الكريم) وقد وقفوا في مهابة بأجسادهم المشعرة وأنيابهم المبللة بالزبد وأظفارهم الطويلة.. لقد تحوّلوا إلى غيلان!

لقد اكتشف (عوف) مكيدتهم يوم أن آتوه بجثة ميتة، فأخذ منهم العهد أن يصبحوا مساعديه، ومن ساعتها صاروا مساعديه الخمسة... وطقوس (عوف) لا تتم إلا بوجود النجمة الخماسية، وحولها خمسة شياطين.. وهل يكون الغول إلا شيطانًا؟
وهل يكون الشيطان إلا غولا؟
بعد انتهاء الطقوس بدأت مرحلة الالتهام، فالتهم الغيلان الخمسة الأطراف الأربعة والرأس، في حين هجم البقية من الرعاع على جسد الضحية، بينما قام (عوف) بصب الدماء التي سقطت من الضحية في كأس فضية عظيمة أخذ ينهل منها!
ثم قام بتقديم الكأس إلى الخليفة قائلا في خشوع:
ـ تبدأ إراقة الدم.. بالدم..
فشرب رشفة واحدة ثم دفع الكأس إلى (سليمان) الذي شرب على مضض..
ثم قال الخليفة وهو يرى الرعاع وهم يلتهمون الجثة بأظفارهم الطويلة وأنيابهم الحادة:
ـ أريد أن أخرج..
فقال له (عوف) وهو مغمض العينين في خشوع:
ـ من يدخل لا يخرج..
ـ ماذا تقصد؟
ـ من يدخل إلى هنا لا يخرج إلا وهو مثلنا ومن عشيرتنا.
ثم فتح عينيه واقترب من الخليفة وعيناه تلمعان ببريق غريب، وقال:
ـ وسوف تراني الآن أيها الفاني الضعيف.. سوف ترى وجه خادم (عزازيل) المخلص..
وفجأة تغير وجهه في ضوء لهب الشموع المتراقصة، وأمسك الخليفة في جسد وزيره كما يمسك الطفل بأمه، كان وجه (عوف بن موسى) قد صار أحمر بالكامل وظهر له قرنان ملتويان كقرني الكبش، وامتلأ وجهه وجسده كاملا بالشعر، وارتفعت قامته حتى قاربت المترين، وطالت أظفاره المنحنية كمنقار نسر، وصارت عيناه كجمرتين متقدتين من جهنم، وأخرج لسانًا مشقوقًا كالثعبان... واقترب من الخليفة الذي نظر إليه في رعب وهو يتراجع متشبثا بوزيره، وقال مبتسمًا بصوته الذي صار غليظًا كأنه صدى صوت جبلي:
ـ اقترب يا (أبا تميم) كي تكون من الخالدين...
فابتعد عنه المستنصر وهو يصرخ في رعب:
ـ لا.. لاااا
ـ اقترب يا عزيزي كي تحوز رضا الأم المقدسة..
ـ ابتعد عني أيها الشيطان!
ـ اقترب يا (معد)، فأنا أتوق لجعلك من غيلاني المخلصين!
كان (سليمان الأنصاري) قابضًا على مقبض سيفه وذلك الغول يقترب رويدًا رويدًا، حتى التصق ظهر (سليمان) بالحائط وفي النهاية اتخذ (سليمان) قراره،

واستجمع في ذهنه كل معاركه وقتلاه وحياته العسكرية، فسحب سيفه ودفع الخليفة في أحضان الغول ثم قفز على كتف الخليفة وطار في الهواء شاهرًا سيفه، صارخًا بعزم:
ـ اللـه أكبر!
ثم هوي على الغول بعد أن هرب الخليفة من براثنه فشطره إلى نصفين...

الفصل الخامس عشر

(السفاح الروسي نيكولاي دزوماجاليش: قتل نحو مئة امرأة من جمهورية قيرغزستان الروسية، وكان يطبخ لحم ضحاياه ويقدمه لضيوفه بل ويجود به على جيرانه!
ولما تم القبض عليه قال: إن وجبة من لحم امرأتين تكفي لإمداده بالطاقة لأسبوع كامل!
حُكِمَ عليه بالسجن مدي الحياة، وقام بالهرب في عام ١٩٨٩م بعد مضي ثماني سنوات من العقوبة، وفر إلى موسكو وألقي القبض عليه مرة أخرى في ١٩٩١م)

(الإسكندرية) أبريل ٢٠١٢م
عاد (أحمد) إلى الإسكندرية.. إلى حياة البنسيون الهادئة.. إلى الحواوشي الإسكندراني ونسيم البحر البارد الذي يرغم الجفون على النعاس..
فليذهب (التبيني) واللواء (رشدي تعلب) إلى الجحيم!
لقد اعتبر (أحمد الجمال) نفسه مكتئبا ومصابا بالهلاوس التي جعلته يتخيل لقاءه بأحد الموتى..
ولكن ماذا عن سراي (أمجد شيخون) وما رآه فيها؟
فقال لنفسه: سوف يأتي يوم يجيء فيه مشتر إلى السراي ويكتشف سر ذلك السفاح، فلا تشغل بالك يا (أحمد)!
وعندما جلس على المقهى الذي التقى فيه باللواء القتيل، وجد صبي القهوة يحضر إليه طلباته وهو يرسل إليه نظرات مرتابة، فسأله (أحمد) وهو يدفع الحساب عن سر نظراته، فأخبره الفتى أنه قد جاء في إحدى الليالي الممطرة منذ ما يقرب من شهرين وجلس وحيدًا، وأخذ يتحدث مع نفسه ويحاورها كأن هناك شخصا معه!
وجاءه شقيقه (فهمي) بعد ثلاثة أيام من مغادرته القاهرة، وحاول بكل الطرق أن يسترضيه ويجعله يعود معه إلى (القاهرة) ولكن باءت جميع محاولاته بالفشل، أخبره (فهمي) أنه سيُتم زواجه بـ(جيلان) بمجرد انتهائه من علاج شقيقها، وأنه سينتظره يوم حفل الزفاف، وفي النهاية اكتفى بأن يترك له نسخة من مفتاح الشقة كي يأتي وقتما يشاء، وطبع قبلة حانية على جبهته ثم انصرف!
عاد (أحمد) لممارسة الصيد ومشاهدة غروب الشمس، ومتابعة الشفق الجميل وهو ينسج خيوطه الحمراء في السماء الزرقاء، في أجمل لوحة كونية يراها في حياته..
لقد أصيب بضرب من الجنون، وهو لا يجد غضاضة في ذلك؛ لقد شعر منذ أن

وطئت قدماه مباحث أمن الدولة أن نهايته ستكون الجنون أو الانتحار، فحمد الل-ه في سره على أن الأمر وصل إلى حد الجنون فحسب!
انتهت مواسم النوّة، وانتهت أيام غضب الطبيعة بعواصفها ونوّاتها وبرقها، وصار (أحمد) يسهر ليلا في المقهى (اليوناني) يتابع التلفاز ويستمع إلى أحاديث الناس، ويحتسي أكوابًا من عصير الليمون بالنعناع، ثم ينصرف إلى البنسيون عندما ينتصف الليل..
ينتظر أن يعاود (رشدي تعلب) الظهور كي يتيقن من جنونه وهلاوسه ويبدأ خطوات العلاج.. إن الاعتراف بالمرض هو أول خطوة على طريق العلاج، و(أحمد الجمال) معترف بمرضه ومقتنع به، لكنه في حاجة إلى ظهور شبح (رشدي تعلب) كي يهدأ قلبه!
مرّت على (أحمد) ثلاثة أسابيع وهو على هذه الحال، وهو سعيد بالعودة إلى حياته القديمة البعيدة عن سراديب الموتى ومطاردة الغيلان، وفي أحد الأيام وبينما كان يستعد للانصراف خارج البنسيون، قال له (خليفة) وهو يفرك عينيه في كسل:
ـ هناك شخص سأل عنك وينتظرك في الاستراحة..
فعاد (أحمد) إلى البهو الذي وضع فيه (إنتريه) رمادي اللون خصص كاستراحة، فوجد شابا في مقتبل الثلاثينات يرتدي العوينات، قام بمصافحته في حرارة وعندما عرّفه بنفسه قال:
ـ أنا الدكتور (محيي الدين عامر) زميل شقيقك الدكتور (فهمي) في المستشفى..
فبدا على (أحمد) القلق ورحّب به في اقتضاب، ثم سأله:
ـ هل أصيب (فهمي) بمكروه؟
فطأطأ الشاب رأسه إلى الأرض وقال في أسي:
ـ لا أعرف كيف سأقول لك هذا الكلام، لكن أخاك حدّثني عنك كثيرًا وأخبرني عن شجاعتك وقوة...
فقاطعه (أحمد) في عصبية قائلا:
ـ ادخل في الموضوع من فضلك..
فقال الشاب:
ـ لقد اختفى شقيقك منذ أسبوعين!
ـ اختفى! كيف؟
ـ لا أحد يعرف، لقد انقطع عن عمله بالمستشفى طيلة ثلاثة أيام، وعندما ذهبت أنا ومجموعة من الزملاء لزيارته، أخبرنا بواب البناية أنه لم يعد إلى منزله منذ يومين، لقد رآه آخر مرة وهو ينطلق خارج البناية في منتصف الليل وبعد عودته من عيادته، ومن ساعتها لم يره بشر!
ـ وخطيبته؟
ـ لا تعلم عنه شيئا..
ـ هل سألتم عنه في الأقسام والمستشفيات؟

ـ لا يوجد له أثر يا سيد (أحمد)..
فانتفض (أحمد) واقفًا في غضب، وقال له بلهجة آمرة:
ـ ابق في مكانك، حتى أجمع متعلقاتي من الغرفة... سوف أعود معك إلى (القاهرة)..

* * *

قضى (أحمد) يومه بين الأقسام والمستشفيات يحاول الوصول إلى شقيقه، ولجأ إلى أصدقائه القدامى بجهاز أمن الدولة وأعطاهم صورة فوتوغرافية لشقيقه، فوعدوه ببذل أقصى جهدهم للوصول إلى الحقيقة وراء اختفائه!
عاد (أحمد) إلى دار شقيقه قرب العاشرة مساءً، منهك القوى، والبواب يحمل حقيبته، وفتح (أحمد) الباب وأخذ الحقيبة من البواب شاكرا وأغلق الباب وراءه..
ألقى (أحمد) بجسده على الفراش في غرفته التي كان شقيقه قد خصصها له، وأغمض عينيه، وتذكر شقيقه الأصغر وهو يحاول التودد إليه وابتسامته الحانية، ورقته معه في الحديث فكادت الدموع تفلت من عينيه، فأمسكها بحزم ونهض متوجها إلى غرفة شقيقه..
كانت الغرفة شبيهة بغرفته، وإن زاد عليها منضدة كمبيوتر صغيرة وضعت بجوار فراشه، واستقر فوقها جهاز حاسب محمول.. كان الجهاز لا يزال مفتوحا، وشاشته سوداء معتمة، فقام بتحريك المؤشر حركة عشوائية فأضاءت الشاشة وظهر عليها ملف كتب بصيغة (الوورد)..
هذه رسالة!
بأعلي الصفحة كان مكتوبا: (الراسل: د. شكري حمدان.. لندن.. المملكة المتحدة)
(عزيزي أحمد..
بعد التحية..
لقد قمت بدراسة كل التقارير والأشعة التي أرسلتها إليّ منذ ما يقرب من أسبوع، وإني لأُدهَش من وجود حالة فريدة كتلك الحالة التي بين يديك في مصر!
فهذا النوع من الحالات لا يوجود إلا في أماكن معينة في غرب ووسط إفريقيا، بين القبائل البدائية التي تعيش هناك بتقاليد وحشية، تنافي كل الصفات الآدمية..
عزيزي أحمد.. لقد عكفت على دراسة التقارير وتأكدت منها بواسطة أرقى خبراء المخ والأعصاب بجامعة كمبريدج.. إن الحالة التي بين يديك مصابة للأسف بداء «كورو»..
ولا بد من عزلها ـ كما تعلم جيدًا ـ عن جميع المحيطين بها..
إن تلك الحالة أيامها صارت معدودة في الحياة، ولا أمل لها في النجاة، وإني لأدعوك للتخلي عنها فورًا؛ لأن ذلك النوع من الحالات يكون خطرا للغاية في مراحل المرض المتقدمة...
تحياتي لك..

وتمنياتي بالتوفيق..)
كان تاريخ إرسال ذلك (الإيميل) هو نفس تاريخ اختفاء (فهمي)..
داء (كورو)؟!
إن (أحمد) لم يسمع به من قبل، إنه يعرف فقط الأمراض الشهيرة: كبد، قلب، سرطان، إيدز..
ولكن ما هو داء (كورو) هذا؟
لحسن حظه وجد (أحمد) علامة (الإنترنت) مضيئة على لوحة مفاتيح الحاسب، فضغط على أيقونة المتصفح، وكتب في البحث (داء كورو).. وما هي إلا ثوان معدودة وجاءته النتائج، فاختار نتيجة (الويكيبيديا) فضغط عليها وقرأ تفاصيل المرض:
أسباب داء (كورو):
ـ يعتقد أن يكون ناجما عن البريونات ويرتبط بمرض كروتزفيلد جاكوب. وهناك بعض الأدلة على أن منشأه كان من استهلاك الفرد من أكل لحوم البشر!
ويقول البعض إنه مرض وراثي يصيب الجهاز العصبي، وإذا توافر فيه بنسبة ٣٠٪ فإنه يسبب الوفاة.
ويعتقد البعض أن هذا المرض ينتشر بسهولة وبسرعة في الناس، نتيجة أكل لحوم البشر، الذين استهلكوا أقارب المتوفى ليعيدوا «قوة الحياة» من المتوفى إلى قريته، واضح في معدلات الإصابة أن كورو كان أكثر شيوعا في النساء والأطفال أكثر من الرجال في ذروتها، لأنه في حين أن رجال القرية اختاروا تقطيع الجثة، والنساء والأطفال من شأنهم أن يأكلوا بقية الجسم بما في ذلك الدماغ، حيث تتركز جسيمات بريون بشكل خاص...
وهناك أيضا احتمال قوي أنه تم تمريره للنساء والأطفال بطريقة أكثر سهولة؛ لأن النساء أخذن مهمة تنظيف أقاربهم بعد الموت، وربما كانت التقرحات مفتوحة على أيديهم.
الخلاصة: إن ابتلاع جزيئات بريون يؤدي إلى المرض، وكانت هناك درجة عالية من انتقال العدوى، لأن جزيئات بريون يمكن أن تصل إلى النسيج تحت الجلد.
(كورو) انخفضت بسرعة بين قائمة الأوبئة المنتشرة، بسبب القضاء على آكلي لحوم البشر، نتيجة إنفاذ القانون الأسترالي وجهود المبشرين المسيحيين...
فشهق (أحمد) ورجع إلى الوراء..
داء (كورو) ينتج عن أكل لحوم البشر، وبصفة خاصة أمخاخهم..
شقيق (جيلان) مصاب بذلك المرض.. إذن فهو واحد من آكلي لحوم البشر..
وضرب (أحمد) رأسه بكفه؛ لقد كان كل شيء واضحا أمامه، لكنه لم يفهم!
(جيلان تعشق الخروج في الليل)..
(لقد وافقوا على الخطبة رغم إحساسي أنني لست العريس المناسب لها!)
(أسرة ثرية ولكنهم منغلقون على أنفسهم)
(جيلان زارت شقيقه في يوم اغتيال رشدي تعلب، فلماذا زارته في ذلك اليوم بالذات؟)

(جيلان)... الاسم قريب للغاية من كلمة مرعبة..
غيلان!
لا يوجد لتلك المعطيات سوى تفسير واحد..
إن شقيقه كان يتعامل مع قبيلة من الغيلان!

* * *

الفصل السادس عشر

(يعتبر حصار مدينة لينجراد إبان الحرب العالمية الثانية لمدة ٨٧٢ يوما من قبل دول المحور، من أسوأ أحداث الحرب!
حيث انتشرت المجاعة نتيجة لنقص الإمدادات من الطعام والمؤن، فانتشرت ظاهرة أكل البشر حتى اضطرت شرطة المدينة إلى تخصيص وحدة خاصة لمكافحة أكل لحوم البشر، وكان الآباء يحذرون أبناءهم من السير في الشوارع والأزقة خشية تعرضهم للقتل والأكل!)

(القاهرة) صفر عام ٥٤٦٤هـ

جلس (المستنصر) منكس الرأس عاقدًا التسبيح بيمينه في قلعة (عكا) الشهيرة، أمام (بدر الدين الجمالي) والي (عكا) الذي انتصب شامخا بوجهه الجاد الصارم وعينيه اللتين تلمعان من فرط الذكاء..

سأل (بدر الدين) بصوته القوي في جدية:

ـ ما رأيك في شروطي يا خليفة المسلمين؟

فابتسم (المستنصر) بزاوية فمه اليمني في سخرية قائلا:

ـ خليفة المسلمين! أي خليفة تقصد يا (بدر الدين)؟

فزفر (بدر الدين) في نفاد صبر ثم أعطى الخليفة ظهره قائلا:

ـ بإمكانك أن ترفض...

فقال الخليفة في يأس:

ـ الرفض لم يعد خيارا مطروحا، والقبول هو الحل الوحيد المتاح..

فالتفت إليه (بدر الدين) قائلاً في سرور:

ـ نِعمَ القرار يا مولاي الخليفة.. سوف أذهب معك أنا ورجالي في فجر الغد..

ثم ملأ صدره بالهواء قبل أن يقول في ثقة:

ـ وأعدك يا مولاي بإصلاح كل ما أفسدته سنون المجاعة، والقضاء على كل أشكال العنف والهمجية التي شهدتها (القاهرة)!

فنهض (المستنصر) متثاقلاً كأنه رجل عجوز عمره مئة عام، وقال في وهن:

ـ أهم شيء يا (بدر الدين) هو القضاء على عصابة آكلي لحوم البشر، وأي شيء بخلاف ذلك يهون أمره..

فاستمر (بدر الدين) بلهجته الواثقة قائلا:

ـ ليطمئن قلبك يا مولاي.. فأنا سأنظف (القاهرة) بأسرها من هؤلاء الحثالة!

* * *

(انتهت الشدة المستنصرية على يد الجمالي، الذي اشترط آن يأتي برجاله وآن يفرض سلطته وأن يعيد الأمور إلى نصابها بقوة السلاح، وهو ما وافق عليه المستنصر. بعد أن عُين الجمالي وزيرًا للدولة عمل على إصلاح نظام الري وقنوات الري التي فسدت، وبالتالي اهتم بالزراعة بعد أن قام بمحاربة الجند المتناحرة وطردهم من المحروسة. جعل المحصول كله للفلاحين أول ثلاث سنوات ثم سيجبي في السنة الرابعة.
عُرف عن الجمالي أنه كان رجلاً عادلاً، مد يده إلى الدولة الفاطمية ونفض من فوقها تراكمات الزمن العصيب وأفاقها من كبوتها. منَّ اللـه أخيرا وبعد سبع سنوات عجاف على مصر بأن فاض نهر النيل من جديد وانقشعت هذه الغمة. خلّد المصريين ذكرى الوزير الجمالي بأن أطلقوا اسمه على أحد أشهر المناطق والأحياء الخالدة في المحروسة وهو حي الجمالية)
المصدر: إغاثة الأمة بكشف الغمة لابن إياس

* * *

بدأت الحياة تعود شيئا فشيئًا إلى (القاهرة)؛ لقد كان (بدر الجمالي) ذكيا في تعامله مع الأزمة، ونجح في العبور بمصر من تلك الشدة العصيبة، بعد أن أصبح الوزير الأول، فقام بحل مشكلات الفلاحين ووفر لهم كل سبل الراحة كي يستطيعوا إنتاج محاصيلهم؛ فطهّر قنوات الري من القاذورات، ورفع الضرائب من على عواتقهم، وعزل الولاة الظالمين وقام ببناء الأبواب العظيمة وأحاط بها (القاهرة) المحروسة، وعلى (باب زويلة) الشهير تدلت الأجساد من المشانق، أجساد ملأها الشعر وطالت أظفارها واحتدت أنيابها، أجساد الغيلان الذين فتكوا بأهل (القاهرة) أحياء وأمواتا. وخُيّل لفريق من المارة بباب زويلة في وقت صلاة (العصر) أن تلك الأجساد المتدلية تتخذ صورة شيطانية غريبة عند رفع الأذان!
فأمر (الجمالي) بإنزالهم من المشانق وقام بحرق جثثهم..
عاد الأمن إلى (القاهرة).. وعاد (المستنصر) يرفل في الحرير، ويتنزه في الحدائق الغنّاء التي أحاطت بقصره، ويتذكر وهو في هذه الجنة، أصعب الأحداث التي مرت عليه في حياته...
لقد استشهد الوزير (سليمان الأنصاري) في تلك الليلة المشؤومة بدار (عوف بن موسى)، قُتِلَ وهو يدافع عن الخليفة الذي نجح في النفاد بحياته من ذلك المنزل الملعون، وفي نفس الليلة عقد العزم والنية على تدمير هذه الغيلان، ولو كان الثمن كرسي الخلافة نفسه!
أما فاجعته الكبرى فكانت عندما عاد إلى قصره، وهو يرتعش من الخوف وجسده يتفصد من العرق، ذهب إلى غرفة أمه كي يختبئ في حضنها كما كان يفعل وهو طفل صغير، لم يجدها في فراشها، وجدها جالسة عند المرآة، كانت الغرفة بها قنديل واحد مضاء، ما جعل رؤيته للأشياء متعذرة، كانت أمه توليه ظهرها وسألته في غيظ غريب:
ـ ماذا فعلت أيها الغبي؟
فأجاب ساعتها وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

ـ لن تصدقي يا أمي ما رأيته الليلة وسأقصه عليك..
كانت جالسة أمام المرآة بشعرها الأسود الفاحم الذي بدا كأنه قطعة منسدلة من سواد الليل، لكنه عندما نظر إلى انعكاس صورتها في المرآة وجد صورة مخالفة؛ وجد امرأة عجوزا شمطاء ثائرة الشعر عيناها كجمرتين متقدتين، وبلا أية أسنان في فيها..
رجع (المستنصر) إلى الوراء من الخوف والتصق ظهره بالباب، فقامت هي من أمام المرآة، ووقفت أمامه بنفس صورتها التي كانت منعكسة بالمرآة، فسأل (المستنصر) في رعب:
ـ من أنتِ؟
ـ أنا والدتك (صافورة بنت مزاحم)... كبيرة سحرة (الكابالا)
ـ لكنك... لكنك مسلمة، وأخبرتِني من قبل أن اسمك (صفوة اللـه)..
فضحكت بفمها الخالي من الأسنان ضحكة مجلجلة، ثم قالت بعدها:
ـ أنا بإمكاني أن أتنكر في أي شكل وفي أي صورة... أنا كبيرة السحرة.. أم جميع الغيلان..
ثم استطردت في غضب:
ـ وأنت الليلة قتلت أعز أبنائي..
فاتسعت عيناه في رعب وهو يقول:
ـ لا، لا، لم أقتله.. وزيري هو من قتله!
فضحكت مرة أخرى قائلة:
ـ جبان.. نشأت جبانًا وستموت جبانًا، ولكن قبل أن أقتلك سوف أخبرك بسر صغير..
ثم ضاقت عيناها وهي تقول بصوتها الذي يشبه فحيح الأفعى:
ـ أنا أكلت جميع أبنائك قبل أن تأتي إلى القصر، وسوف تجد بقاياهم في فرشهم.. لقد انتقمت يا أيها الرعديد، أنت قتلت ابني، وأنا قتلت أبناءك!
ولم تكد تتم كلماتها، حتى أخرج (المستنصر) خنجره من غمده وغرسه في قلبها، فجحظت عيناها وصرخت صرخة مدوية اهتزت لها أركان القصر الفاطمي!

* * *

أيقظته يد (بدر الدين الجمالي) التي وضعها على كتفه، فانتفض ملتفتًا إلى الوراء فوجد وزيره يقف أمامه باسم الثغر وضّاء الوجه، ويقول له:
ـ لقد نفذت لك كل ما طلبت يا مولاي، وآن الأوان أن تعود (القاهرة) لسابق مجدها..
فأجابه (المستنصر) في فتور:
ـ لكن حوادث أكل البشر تكررت في مناطق عديدة من الدلتا والصعيد..
فهز (بدر الدين) كتفيه في يأس قائلا:
ـ أنا لا أنكر أن هناك فريقا من هؤلاء الغيلان قد فرّ إلى أقاليم (مصر)..
ثم استطرد في عزم:
ـ لكني سوف أتعقبهم وأعطيهم جزاءهم الذي يستحقونه، مهما طال بي العمر!

فأمسك الخليفة بكتفيه، ونظر إليه في إكبار قائلا:
ـ بارك اللـه فيك يا (بدر الدين) وأعانك على حملك الثقيل..
واستكملا معا نزهتهما بحديقة القصر الخلابة!
* * *
خارج أسوار (القاهرة) المنيعة وأبوابها الحصينة، كان الحاج (عوض المنزلاوي) يقوم بإعداد قافلته المتوجهة إلى (الصعيد)، لقد مرت عليه سنوات عجاف لم يشهد مثلها من قبل لم يفلح فيها إلا في تسيير قافلة واحدة من الصعيد إلى (القاهرة)، وفشل في العودة من (القاهرة) إلى أرض الصعيد، لكنه اليوم ـ والسعادة مرسومة على وجهه الكهل ـ يستعد للعودة إلى أرض أجداده وآبائه بالصعيد، محملاً ببضائع وأقمشة وحُليّ تضمن له ربحا لا بأس به..
كان الحُداة يستعدون لتحريك الجمال، ورجال الحاج (عوض) يتحركون في نشاط دائب من أجل الإسراع بوضع البضائع على ظهور الجمال، في حين دخل الحاج (عوض) إلى خيمته كي يرشف آخر شربة ماء من أرض (القاهرة) قبيل انطلاق القافلة..
لم يكن الماء قد وصل إلى جوفه بعد عندما دخل إلى خيمته أربعة رجال ثيابهم تعلوها الأتربة، ووجوههم مشعثة مغبرة، حاسري الرؤوس.. سرت رجفة من الرعب في قلب الحاج (عوض) ووضع قربة الماء جانبا، وقال أحدهم:
ـ السلام عليكم يا حاج..
فأدار عينيه بينهم في ريبة وهو يرد السلام، ثم تحدث آخر قائلا:
ـ نريد أن نكون معكم في القافلة يا حاج..
فرد عليه مبتسما في عصبية:
ـ لكن القافلة كاملة العدد للأسف..
فقام أكثرهم بدانة بإخراج صرة من الدنانير ألقاها أمام الحاج (عوض) في محاولة لإغرائه بالقبول، ففتح الحاج (عوض) الصرة وأخرج منها أكثر من مئتي دينار ذهبي لامع، جعلت وجهه يشرق بالفرح وهو يوافق على اصطحابهم معه..
لم يكن الحاج (عوض) يعلم ساعتها أنه ارتكب أشنع أخطاء حياته، عندما وافق على اصطحاب هؤلاء الأربعة معه؛ ففي منتصف الطريق المؤدي إلى (الصعيد)، وفي إحدى الليالي الخريفية التي غاب عنها القمر، هجم هؤلاء الأربعة على رجال القافلة وأعملوا فيهم أنيابهم وضروسهم الحادة وتركوهم أشلاء ممزقين، في حين توقف قلب الحاج (عوض) وهو يرى تلك المخلوقات الغريبة الضارية تفتك بقافلته!
بعد أن ساد السكون الذي سبقته صرخات الفزع والاستغاثة والرعب، جلس الأصدقاء الأربعة حول النيران المشتعلة بأجسادهم المشعرة وأعينهم المتقدة، فقال (عبد الكريم):
ـ نجونا يا أصدقائي!
وقال (سعدة) وهو يمسح بطرف كمه آثار الدماء من على شفتيه:
ـ لولا هذه القافلة لبقينا في (القاهرة) كي تطول رقابنا مشانق (الجمالي)

اللعين!
وجاء إلى ضوء النيران (شاهين العزازي)، وجلس بجوار صديقيه وهو يقول في غيظ:
ـ لقد كان مجيء (الجمالي) نكبة شديدة، فلم يكتف بشنق أصدقائنا وأتباعنا، بل قام بحرق دار (عوف بن موسى) وأحرق معها كل كتبه وتعاليمه..
فجاء من ورائهم صوت (جليل القواس) قائلا:
ـ لكننا نمتلك أهم كتاب يا أصدقائي.. كتاب طقوس الالتهام.. لولا أنني أخذته من (راضي) قبل فراره لصرنا في خبر كان!
وتساءل (سعدة) في حسرة:
ـ ترى أين (راضي) يا إخوان؟
فتجاهل الجميع سؤاله، وسأل (عبد الكريم):
ـ وماذا نحن فاعلون الآن بعد أن تركنا ديارنا وأرضنا؟
فقال (شاهين) في حماس:
ـ سوف ننطلق إلى (الصعيد) ومن هناك نستأنف نشاطنا مرة أخرى؛ لا يوجد في (مصر) ما هو أكثر من القبور والجثث المتحللة، وبعد ذلك نعاود اصطياد النساء السمينة والأطفال المكتظين بالشحم... سوف نعيش ونتزوج ونتكاثر ونورّث تعاليم (الكابالا) لذرياتنا.
واستطرد (جليل) في حماسة لا تقل عنه:
ـ كتب التعاليم نحفظها عن ظهر قلب، وكل ما جاء بها من صلوات وتراتيل، ومعنا أهم كتاب لأداء الطقوس، وسوف نجد أما مقدسة جديدة، وربما يحالفنا الحظ ونعثر على (راضي) كي يكون كبيرنا، سوف نصنع أكبر قبيلة للغيلان شهدتها (مصر).. أما (الجمالي)..
وصمت (جليل) هنيهة قبل أن تلمع عيناه في وحشية على ضوء النيران المتراقصة، كنجمتين في فضاء ليل حالك السواد، ليواصل كلامه قائلاً في غلٍ:
ـ أما (الجمالي) فلن نرحمه، ولن نرحم ذريته مهما طال بنا الزمان!

* * *

جلست (هند اليعقوبي) بجوار خطيبها على ضفة ترعة (المنزلة) يشاهدان جريان المياه العذبة، كي تروي الأراضي الزراعية الممتدة أمامهما في الفضاء اللامتناهي، إن خطيبها إنسان غريب وغامض، فقد جاء إلى قريتها الصغيرة منذ ما يقرب من عام، تاجر قاهري هارب من المجاعة التي ضربت العاصمة الفاطمية، كي يستقر بدلتا مصر التي بدأت الانتفاض في وجه المجاعة..
إن خطيبها لا يحب الحديث ويكره الثرثرة، وفي وجهه مسحة حزن تضفي عليه غموضًا جذبها إليه كأنثى تكره الرجال التقليديين الذين كانوا حولها، أمسكت يده وقالت له في حنان:
ـ شكلك مرهق للغاية!
فأجابها بجمود:
ـ هذا حقيقي!

فسألته في مرح:
ـ ومتى نتزوج يا صاحب الوجه العابس؟
فأجابها بهدوء غير ملتفت لدعابتها:
ـ أسبوعان على أقصى تقدير..
ـ إن القرية بأسرها ستفرح لزواجنا يا حبيبي، ولعل تلك الفرحة تنسيهم آلامهم التي سببتها الجرائم الوحشية التي وقعت خلال الشهر الماضي!
ـ لا تحاولي تضخيم الأمور يا (هند)..
فتساءلت باستنكار:
ـ وهل تجد أن العثور على جثث ثلاثة أطفال وامرأتين وهي مشوهة بذلك الشكل المرعب، ومبتورة الأطراف، أمرًا غير ضخم؟
فأجابها دون اكتراث:
ـ لعل حيوانا مفترسا هاجمهم!
ـ من العسير تصديق هذا الاحتمال!
ثم ألقت برأسها على كتفه وقالت له:
ـ إني أحبك يا (رضوان).. وأعشق غموضك وحزنك الدائم، وأتمنى من اللـه ـ عز وجل ـ أن يهبني القدرة لإسعادك، وأن يمن علينا بالذرية الصالحة التي تملأ حياتنا بهجة..
فالتفت إليها وابتسم ابتسامة خفيفة أذابت القليل من ملامح الحزن، وقال لها في غموض:
ـ سوف يحدث كل ما تتمنين يا (هند)، أنا واثق من ذلك، وسوف تبقى ذريتنا وتنتشر، وتسود!
ـ (رضوان).. أريد أن أسألك شيئًا ما، ماذا كنت تفعل قبل العمل بالتجارة؟ فأنا في بعض الأحيان أشعر أنك لا تجيد البيع والشراء وتخطئ كثيرا في عمليات الحساب!
فتنهد في حرارة ثم قال:
ـ لقد كنت صانع أحذية يا (هند).. إسكافي بسيط.. لكن اللـه وهبني مالاً وفيرًا قررت زيادته بالتجارة..
ثم نظر في عينيها السوداوين النجلاوين، وقال بهدوء غريب:
ـ وربما أعود إلى مهنتي القديمة يومًا ما، فأنا دائمًا أحن إلى الماضي وذكرياته الجميلة، وفي قريتنا الجميلة هذه أشعر أن الحظ سيحالفني!
ومد ذراعه وقام باحتضانها، وشعر أن قلبه عاد يدق بقوة مرة أخرى كيوم لقائه بزوجته الأولى.
(ثريا القليوبي)..

الفصل السابع عشر

(فقال لهم يسوع: الحقَّ الحقَّ أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فلهُ حياة أبدية وأنا أُقِيمُهُ في اليوم الأخير. لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ، وأنا فيه).
إنجيل يوحنا: الإصحاح ٦

(القاهرة) أبريل ٢٠١٢م
قضى (أحمد) الليل بطوله على الإنترنت يتعرف على آكلي لحوم البشر والغيلان، وعلم أن بداية ظهورهم في مصر كانت في أثناء (الشدة المستنصرية) التي حدثت في وقت حكم الخليفة الفاطمي (المستنصر باللـه) وقرأ مخطوطات نادرة عن تفشي أكل لحوم البشر في تلك الفترة، وما نتج عنها من حوادث مريعة..
وقرأ أيضا أن العرب قديما اعتبرت أن الغيلان هم سحرة الجن، وأن بإمكانهم التحول في أي صورة يشاءونها، ويظهرون بها أمام فريستهم فحسب، وأن أذان الصلاة يجعلهم يرتدون إلى خلقتهم الأصلية البشعة...
* * *
(رشدي تعلب) لم يره أحد سواه، وكان يخفي معظم تفاصيل وجهه بالنظارة الشمسية الضخمة!
(رشدي تعلب) لم يخبره عن مكان وجوده قط، وكان يأتيه دائمًا بصورة مفاجئة!
لكن ذلك الغول كيف عرف بملف القضية ١٤٣٠؟
* * *
عرف أيضا أن ذكر الغول يسمى بالعتريس (بكسر العين والراء وسكون الياء)..
وقرأ العديد عن سيرة آكلي البشر من السفاحين مثل (إيد جين) و(فريتز هارمان) و(ألبرت فيش) وغيرهم...
أما في (مصر) فقد قرأ مخطوطة نادرة عن وجود ساحر يهودي اشتهر بعلوم سحر (الكابالا)، وأن هذا الساحر كان قد نزح من هضاب (الأناضول) ـ (تركيا) الآن ـ إلى بلاد (الشام) وبعد طرده منها جاء إلى (مصر) متخفيا في شخصية تاجر، وأنه كان يمارس طقوسًا سحرية وثنية ويتلو صلوات مبهمة تجمع بين اللغتين العبرية والتركية، يستدعي بها الجان وسحرتهم كي يمدوه بالقوة..
علم (أحمد) أيضا أن لكل قبيلة من الغيلان (أُمًا مقدسة) تشرف على أداء صلوات التضحية وتمتلك كتاب التعاليم؛ إن الحضارات الوثنية كانت دائما تنظر إلى

الأنثى على اعتبارها رمزا للوجود والحياة، ويتم دائما الزج بها أمًا للتضحية، أو لقيادة مراسم التضحية، فتصبح (الكاهنة الأم) أو (الأم المقدسة)، أو بالتعبير الدارج الذي تناقلته الأذهان منذ مئات السنين...(أمنا الغولة)!
ظل (أحمد) على وضعه أمام الحاسب حتى سطع نور الصباح، فتوضأ وصلّى الصبح، ثم نام كي يأخذ قسطًا من الراحة قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه..
* * *
في الليل اتجه (أحمد) إلى سراي (منصور العتريس)، كان يرتدي بذلة سوداء وقميصًا أبيض ورابطة عنق كحلية اللون، كان هندامه يوحي بأهمية مركزه وثقته في نفسه، وبعد أن أدخله الخادم إلى الداخل، جاءه المستشار المتقاعد العجوز يرتدي حلة بنية أنيقة ويبتسم في تودد، لقد كان أصلع الرأس تماما، أفطس الأنف، ويملك وجها ضخمًا ذكره ببطل فيلم الأنمي الشهير (شِرِيك)!
كانت السراي تشبه قلاع العصور الوسطى؛ بما فيها من تماثيل رومانية عاجية اللون مختلفة الأحجام لكباش وثيران.. بدأ الحديث قائلا في أسف:
ـ إني لأشعر بالأسف لاختفاء شقيقك يا سيد (أحمد)..
وبوجه جامد ونظرات صارمة قال له (أحمد):
ـ أشكرك يا سيدي..
ـ هل هناك ما يمكن أن أقدمه لك؟
فابتسم (أحمد) ووضع ساقًا فوق ساق وهو يقول:
ـ أريدك أن تقدم لي أخي..
فنهض في غضب سائلا:
ـ هل جننت؟
ـ أنا لم أجن..
ثم أخرج رسالة الدكتور (شكري حمدان) التي قام بطباعتها وألقاها أمام (منصور العتريس) قائلا:
ـ هذا التقرير من أكبر أطباء جامعة (كمبريدج) يؤكدون فيه أن ولدك مصاب بداء (كورو) الذي يصاب به من يتناولون لحوم البشر، وبصفة خاصة.. أمخاخهم..
فوجم (منصور العتريس) لدقيقة ثم انفجر ضاحكا، وألقى بنفسه على الكرسي وراء المكتب قائلا:
ـ شيء عظيم يا (أحمد) باشا.. أنت ضابط ناجح، فلماذا تركت الخدمة إذن؟
فاعتدل (أحمد) في جلسته قائلا في غضب:
ـ أين أخي؟
ـ أنت تعرف القاعدة يا عزيزي؟
ـ لآخر مرة سأسألك.. أين أخي؟
ـ من يدخل لا يخرج يا ابن (الجمال)!
فأخرج (أحمد) هاتفه المحمول وضغط على ملف موسيقى، فصدح بصوت الأذان، فارتمى (منصور العتريس) على الأرض وهو يصرخ:
ـ كفى.. كفى..

ثم بدأ شكله يتغير، طالت أظفاره وامتلأ جسده بغتة بالشعر الأسود، وظهر له قرنان صغيران عند مقدمة رأسه، فنهض من على الأرض وقام بتمزيق الحُلة من على جسده، فإذا هو الغول الذي رآه (أحمد) من قبل...
اقترب الغول من (أحمد) في بطء، وهو يبتسم في وحشية ويتكلم بصوته الغليظ:
ـ حانت نهايتك يا ابن الجمال!
فجرى (أحمد) وخرج من الغرفة، فوجد في البهو شابا ضعيف البنية ناعم الشعر ينظر إليه في غضب بعينين حمراوين كأنهما كأسان من الدماء، ثم طار الشاب في الهواء عاليا وهوى على (أحمد) بقبضته، فسقط أرضًا عند قدمي (العتريس) الذي وضع قدمه المليئة بالشعر على وجه (أحمد) قائلا في تأنيب:
ـ ماذا فعلت يا (وجدي) بضيفنا العزيز؟ هل يصح هذا الكلام؟
كاد (أحمد) يختنق وقدم (العتريس) تكتم أنفاسه، ثم هوى (العتريس) بكامل قوته على وجهه، فغاب (أحمد) عن الوعي..

* * *

عندما أفاق (أحمد) وجد نفسه مكبلا بأغلال حديدية على جدار رطب، كأنه كهف من العصور السحيقة، ورأى في الجهة المقابلة له شقيقه (فهمي) وقد نمت لحيته وذبل لونه، وكان مثله مكبلا بالأغلال الحديدية، وكانت (جيلان) تطعمه قسرا في فمه وهي ترتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، صرخ (أحمد) بأعلي صوته:
ـ (فهمي)!
فنظر إليه شقيقه وبكى من الفرحة وهو يقول بصوت ضعيف لاهث:
_ (أحمد).. أخي.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟
ـ سوف أنقذك يا (فهمي).. أعدك بأني سأخرجك من هنا..
فألقت (جيلان) بالطبق من يدها، وتوجهت إلى (أحمد) مبتسمة وهي تعبث في شعر صدره سائلة:
ـ وكيف ستنقذه أيها المغوار؟
فقال لها في غضب:
ـ ابتعدي عني أيتها الحقيرة..
ـ أبتعد؟
ثم رنت ضحكة مجلجلة، وبدأت ملامحها في التحول.. شعرها الأشقر الناعم أصبح أبيض ثائرا، ملامحها الشابة الجميلة تحولت إلى وجه مجعد عجوز، أنفها أصبح معقوفًا، وأظفارها صارت كمخالب الدب، فنظر إليها (أحمد) في رعب وقال:
ـ أنت.. أنت..
ـ أنا كبيرة السحرة.. أم الغيلان!
ـ ابتعدي عني.. ابتعدي!
فضحكت قائلة:
ـ في الماضي قتل جدك (بدر الدين) معظم أبنائي.. واليوم أعود كي أنهي سلالته وأجعلها وجبة لأبنائي الجدد..

ـ جدي (بدر الدين)؟ جدي اسمه (فؤاد) وليس (بدر الدين).
ـ لا أقصد جدك الأول أيها الغبي، لكني أقصد جدك العاشر.. (بدر الدين الجمالي)!
ثم نادت بأعلى صوت لديها:
ـ أين أبنائي الخمسة؟
* * *
تم تكبيل (فهمي) في الأرض وأمسكت الساحرة العجوز بالكتاب المشؤوم وقامت بتلاوة صلواتها الشيطانية، وتأمل (أحمد) حوله، فأدرك أنه في قبو سراي (أمجد شيخون) ـ بعد أن تم تنظيفها من الرفوف إياها والجثث المتحللة ـ ومن بعيد سمع صوت الأقدام الضخمة وهي تهبط الأدراج، ثم تبين من بعد ذلك وجه (منصور العتريس) الشيطاني، الذي اقترب منه رويدا رويدا حتى شعر (أحمد) برائحة أنفاسه النتنة، ثم قال (منصور) في انتصار:
ـ اليوم أخيرا ينتهي كل شيء، وأقضي على ذرية (الجمالي) الملعونة؛ كي أحقق وعد جدي الأكبر، وحتى يسود الغيلان وينتصروا، لقد أتعبتني كثيرا يا (أحمد) بك منذ أن اضطررت إلى التخفي في شخصية (رشدي تعلب) الذي التهمته وطبخت لحمه اللذيذ، كي أجر قدمك إلى هنا.. كي أجمع البيض كله في سلة واحدة.. حتى ألتهمك أنت وشقيقك وينتهي أخيرا نسل (الجمالي)!
فسأله (أحمد):
ـ و(التبيني)؟ هل كان منكم؟
فابتسم (منصور) ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه الصفراء التي تخللـها السواد قائلا:
ـ (التبيني) كان تلميذا نجيبًا.. نجح في حياته العملية كآكل للحوم البشر، لكنه لم يرتق أبدًا لمنزلة (الغول)، بعد أن التهمنا والدته فرّ هاربًا وكنا نتابع نشاطه وتحركاته، وساهمنا كثيرًا بنفوذنا المتزايد في أهم مراكز الدولة في إخفاء نشاطه عن الأعين، هذه إحدى قواعد الغيلان يا عزيزي:
(إما أن تكون منا وإما نأكلك، وإذا صرت واحدًا منا فكان حقًا علينا أن نحميك)!
وعندما سقط في أيدي الشرطة حاولنا بكل الطرق التخلص منه قبل أن يتكلم ويكشف سرنا، لكن الحراسة كانت شديدة عليه، فتركناه يواجه الإعدام، وعندما سقط في أيادينا (رشدي تعلب) أخبرنا أن ملف القضية معك وأنك أجريت مع (التبيني) حوارًا قبل إعدامه، ولذلك لم يكن هناك مفر من الظهور لك بشخصية (رشدي تعلب) للحصول على الملف والتهامك بعد ذلك!
ثم تركه واتجه إلى أخيه الذي كان شبه فاقد للوعي، وسمع (أحمد) أصوات أقدام عديدة تهبط الدرج، فوجد أربعة من الغيلان يتواثبون نحو القبو ويشعلون الشموع في حلقة دائرية، ثم بدأ (منصور العتريس) في رسم الدائرة الخماسية بالطبشور، ثم أمر الغيلان الأربعة الآخرين فقاموا بفك وثاق (فهمي) ـ الذي كان شبه فاقد للوعي ـ وقاموا بتثبيته في الأرض على النجمة الخماسية، ووقف الجميع في انتظار الأم المقدسة..

كان (أحمد) يراقب كل هذا وهو يحاول التملص من أصفاده الحديدية ولكن دون جدوى، ونظر إلى أخيه المسكين الذي تمدد على الأرض في استسلام، وتخيل (أحمد) مشهد شقيقه الوحيد وهذه الوحوش تقطعه بأنيابها دون شفقة أو رحمة، وتذكر والدته وهي على فراش الموت وتوصيه بأن يحافظ على أخيه مهما كان الثمن وألا يتخلي عنه أبدا!
لم تمر لحظات حتى جاءت (جيلان) في هيئتها الحقيقية المرعبة، وكانت تحمل تحت إبطها الأيمن كتابًا عتيقا مهترئا، ثم ابتسمت بفمها الخالي من الأسنان لـ(أحمد) وقالت ساخرة:
ـ سوف يحين دورك بعده يا عزيزي.. فلا تقلق!
ثم أعطته ظهرها وشرعت في فتح الكتاب وتلاوة الصلوات، وسألت:
ـ هل الجميع موجود؟
فجاءت أصوات الغيلان الخمسة مجيبة:
(منصور العتريس) هنا!
(هشام العمري) هنا!
(سامي القواس) هنا!
(عبد ربه الفران) هنا!
(نزار العزازي) هنا!
ففتحت الكاهنة الكتاب وبدأت في قراءة الترانيم الموجودة به، والغيلان الخمسة يستمعون في خشوع، ويرددون الترانيم وراءها بصوت خافت..
(باناه دوتش فار، تشينا تشادي!)
فصرخ (أحمد):
ـ أريد أن أكون منكم!
فالتفتوا جميعا إليه غير مصدقين لما سمعوه، فعاد يقول في أصرار:
ـ أريد أن أصبح غولاً مثلكم!
فتوجهت (جيلان) إليه وهي تبتسم في وحشية وقالت له:
ـ مراوغة جيدة يا حفيد (الجمالي)!
فقال لها:
ـ أقسم إنها ليست مراوغة؛ أنا (أحمد الجمال) حفيد (بدر الدين الجمالي) أريد أن أصبح من الغيلان..
فتراجعت خطوة إلى الوراء ونظرت إليه غير مصدقة لما يقول، ثم استطرد قائلا:
ـ ولكن بشرط واحد.. أن تتركوا أخي لحال سبيله!
فانفجر الجميع ضاحكين ثم قال (منصور العتريس) وهو يقترب من (أحمد):
ـ تضحية عظيمة يا (أحمد) لكننا لا نقبلها يا عزيزي!
فقال (أحمد) في توسل:
ـ سوف أكون معكم للنهاية وأصبح آكلاً للحوم للبشر، أنا تركت الخدمة في الشرطة وبلا عمل أو مأوى، لكن أخي ما زال المستقبل أمامه.. اتركوه وسوف أصير خادمكم المطيع..

ثم التفت (منصور) إلى (جيلان) وسألها:
ـ ما رأي الأم المقدسة في عرضه؟
فقالت بعد لحظات من التفكير:
ـ عرض غير سيئ، تخيل يا (عتريس) أن يكون حفيد (الجمالي) ـ قاتل الغيلان ـ واحدا من الغيلان، ويعيش معنا ويأكل من طعامنا ويشعر أخيرا بحياة الهرب والجوع والنتن التي نعيش فيها..
ثم التفتت إلى (أحمد) وقالت بصوت أشبه بفحيح الأفاعي:
ـ ولكن قبل أن تصبح واحدا منا سوف تقوم بتقديم تضحية بسيطة يا (أحمد).. سوف تلتهم ساق أخيك فحسب!
فهتف (أحمد) في رعب:
ـ مستحيل!
ـ هذا هو الحل الوحيد يا (أحمد) كي تصبح واحدا منا!
وفي النهاية وافق (أحمد) في استسلام، فقاموا بحل وثاقه وألقوه عند ساقي أخيه ووقف الغيلان الخمسة وراءه، و(جيلان) عند رأس أخيه تنظر إليه في شيطانية، وتبتسم في تشفٍ واضح..
بدأ (أحمد) في كشف ساق أخيه وقام بتقريب فمه إليها وهو يذرف الدموع!
وفجأة..
سمع الجميع ضربات متلاحقة على باب القبو، كانت هناك أكثر من يد تحاول تكسير الباب الموصد بإحكام، ثم جاء الصوت من وراء الباب قائلا بلهجة آمرة:
ـ الشرطة تأمرك أن تفتح الباب يا (منصور) والخروج رافعين أياديكم أنت ومن معك!
فجاء صوت أحد الغيلان من وراء (أحمد) يقول في رعب:
ـ الشرطة!
وقال آخر:
ـ هلكنا جميعا!
أما (أحمد) فقام باستغلال عنصر المفاجأة ونهض سريعا وقام بلكم (منصور العتريس) في وجهه، في حين كان الباب قد انكسر فتدافع رجال الشرطة منه إلى القبو..

* * *

عندما أفاق (أحمد الجمال)، وجد نفسه على سرير أبيض وقد تم وضع محلول في يده اليمني، وبجواره جلس شقيقه وقد صار ذقنه ملامسًا لصدره... إنه نائم!
نادى (أحمد) بصوت واهن:
ـ (فهمي).. (فهمي)..
فأفاق شقيقه وقفز من كرسيه في فرحة ممسكًا بيد أخيه، وقال له:
ـ حمدا للـه على سلامتك يا أخي..
ـ ماذا حدث؟
ـ لولا رصاص الشرطة الذي اخترق أجساد الغيلان الخمسة، لأصبحت في خبر

كان! ولكن من اتصل بالشرطة؟
ـ بالطبع أنا أيها الذكي؛ قمت بإبلاغ أحد زملائي بالأمن الوطني قبل التوجه للسراي أن يقوم باصطحاب فريق من القوات الخاصة، لاقتحام بهو السراي إذا غبت بالداخل لأكثر من ساعة!
فضحك (فهمي) قائلا:
ـ فكرة ذكية يا شقيقي العزيز..
ثم غمغم (أحمد) سائلا:
ـ و(جيلان) هل ماتت معهم؟
ـ اللعينة اختفت، لم نعثر لها على أثر..
ـ ترى أين ذهبت؟
ـ من المؤكد أنها ستظهر مرة ثانية يا أخي؛ تظهر في أزمنة الجوع والوباء والبلاء، لقد كنت غبيًا عندما حاولت اقتحام تلك السراي منفردا بعد أن علمت حقيقة تلك الأسرة..
ـ ولماذا أنا هنا؟
فأجابه ضاحكًا:
ـ لقد أصابتك إحدى الرصاصات في كتفك بالخطأ...
فغمغم (أحمد) شاردا:
ـ كنت أتمنى أن يفتكوا أيضا بتلك الكاهنة!
فربت (فهمي) على كتفه وقال له:
ـ سلامتك عندي أهم من أي شيء آخر.. لقد كانت قبيلة الغيلان موشكة على الفتك بنا! هل تصدق أنني كنت سأتزوج بأمنا الغولة؟
وضحكا معا، ثم نهض (فهمي) من جواره وأخبره أنه سيذهب ليحضر شيئًا ليأكلاه، وتركه وحيدًا في الغرفة الصامتة..
كاد النعاس يغلب عيني (أحمد) عندما انفتح الباب ودلفت منه إحدى الممرضات تحمل في إحدى يديها حقنة طبية، وتبتسم له في تودد، كان (أحمد) يعاونها في كشف ذراعه وهو يسألها بصوت واهن:
ـ متى وصلت إلى هنا يا آنستي؟
فأجابته وهي منكفئة على ذراعه تحاول البحث عن الوريد:
ـ منذ نحو ساعتين يا سيدي..
ـ وفي أي مستشفى أنا؟
ـ مستشفى (المعادي) العسكري..
ـ هل هناك مصابون آخرون وصلوا معي؟
ـ لا..
ـ غريب!
ثم رفعت الممرضة وجهها إلى (أحمد) فوجد وجهها وقد صار وجها مجعدًا بفم خال من الأسنان، وعينين تلمعان كذئاب البراري، وقالت مبتسمة في وحشية:
ـ لقد مات الجميع يا (أحمد) لكنني سوف أعود كي أنتقم منك ومن أخيك..

سوف أجد جائعين آخرين وأحولهم إلى غيلان مخلصين، وسوف تشهد بعينيك (القاهرة) وهي تأكل أهلها بلا رحمة، سوف أدعك تعيش حتى هذه اللحظة، ثم أفترسك بعدها..
إلى اللقاء يا عزيزي!
ثم قامت بغرس الحقنة في المحلول المعلق بجواره.. فغاب (أحمد) عن الوعي...
* * *
(القاهرة) أغسطس ٢٠١٧م
أمام إحدى سيارات القوات المسلحة التي تخصصت في بيع اللحوم بأسعار مخفضة للمواطنين، اصطفت مجموعة من النساء يحاولن الحصول على أحد الأطباق التي تحوي السلعة الأقرب إلى القلوب، والقاصية عن كل بيت من بيوت الفقراء!
وبجوارهن كان هناك مقهى شعبي جلس عليه رجل عجوز كئيب المنظر ضخم الأنف حاد النظرات، ينظر في اشمئزاز إلى تدافع النساء على السيارة، ثم جاءه شاب مفتول العضلات في متوسط العمر كث الشارب، وجلس بجواره قائلا في سخرية:
ـ السيارة أتت أخيرًا بعد انقطاع لمدة شهرين... المنطقة كلها ستبيت الليلة وهي شبعى!
فرد عليه العجوز ساخطا:
ـ يتدافعون مثل البهائم دون وعي ولا شعور!
ـ ساعة الجوع تعمى الأبصار يا عم (رضا)..
ـ أنتم دائما جائعون، لم أشهد يوما على هذه الأرض لم يكن أهل هذه المنطقة فيه جوعى!
فضحك رفيقه عاليا وسأله:
ـ وأنت.. ألم تشبع يوما يا عم (رضا)؟
فقال في غموض:
ـ أنا لم أجُع قط كي أشبع يا عزيزي..
فسأله ضاحكًا:
ـ لماذا يا عم (رضا)؟ أنا منذ أن جئت إلى الحياة لم أرك تأكل قطعة لحم واحدة، وحتى دكان بيع الأحذية الذي تمتلكه لا اعتقد أنه يدر عليك دخلاً جزيلاً!
فنهض العجوز متعجلا واستأذن منه متعللاً بانشغاله بموعد هام، وفي طريق عودته إلى المنزل تذكر أنه قد ترك جزءا من عشاء الأمس بالدكان، فانطلق إليه، وقام بلف البقايا في إحدى أوراق الجرائد، وذهب إلى داره، وبعد أن فتح الباب جلس على المائدة وقام بفك لفافة الجريدة وأخرج ساق طفل صغير أخذ يلتهمها في نهم، وهو يترحم على جده (راضي الإسكافي) الذي أورث لذريته تلك العادة العظيمة التي أغنتهم عن الذل من أجل الحصول على قطعة لحم، وضمنت لهم البقاء بأعتى صور القوة التي شهدتها الطبيعة، وبعد أن فرغ من غدائه نزل إلى الشارع وذهب باتجاه دكانه وهو يصفر في سعادة ونشوة..

وعيناه تبحثان بين الصبية الصغار المنتشرين في الشارع كالجراد عن فريسة الأسبوع المقبل!

* * *

(يام يام: كلمة باللغة التركية تعني أكل لحم البشر، ويستخدمها سحرة (الكابالا) في طقوس التهام البشر وتصفية دمائهم)

تمت